من الخيال العلمى

جريمة عالِم

أميمة خفاجى

ريشة : هالة أحمد عبد الفتاح



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

" ... إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... "

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

(سورة فاطر - الآية ٢٨)

الفصل الأول

كم مضى عليها من الوقت وهى جالسة هكذا ؟ شاردة ، تائهة ، خائفة ! لقد ارتدت السماء ثوبها الثالث .. بعد أن هتك القمر ستر الظلام .. ومازالت هى فى جلستها على المقعد الوثير ، لم تتحرك بعد ، ماذا كان عليها ؟ وكيف أودت هذه العلة بحياتها ؟ الله وحده يعلم هذا .

فى أية ساعة هى على وجه اليقين ؟ أفى ساعة وقف فيها القمر ، بين الليل والنهار على الحياد ؟ أم انهما يقفان وجها لوجه ، متأهبين ، للعراك ، يرتقبان اللحظة المواتية .. مثلها .. لم لا تدعهما وشأنهما ، يتأهبان ، يرتقبان ولكنها حال الطبيعة .. التى تؤنس الانسان فى وحشته ، فيرى حياته وتقلباته فى اختلافها .. تئن بلا

صوت .. وهى تتذكر آخر حوار معه . يوم حكم عليها بالاعدام .. كتب هذا الحكم وكأنه يكتب بطاقة دعوة لحفل عشاء ! تتقابل أهدابها فى قبلة خاطفة .. لتخنق عبرة حاولت الهرب من أسرها .. الأسر الذى امتد لتسع سنوات متواصلة .. واين هى الآن ؟ لقد مضى كل شىء .. ولم يبق سوى حفنة من الذكريات .. وواقع أليم لا يرحم .. عاشت ، تحلم .. وتتمنى ، وهاهى تجنى ثمار أحلامها .. فماذا أسفرت النتيجة ؟ وأتساءل : هل تستحق اشجان كل هذا العذاب ؟ عندما عرفتها كانت كالطاووس .

تسير رافعة رأسها فى قوة وتحد وإغترار .. كأنها تحس جمالها ، وسطوته .. فوجهها من تلك الوجوه التى لا تنسى .. له ملامحه الخاصة ، وشخصيته المتفردة .. حتى يخيل لك أنه لا يوجد له شبيه .. لفرط جاذبيته ، فى لمحة خاطفة تستقر وتنطبع داخلك ملامحها الانثوية الحارة .. واخطر ما فيها ، قوامها ! لم تكن به

غلطة واحدة .. فخصرها مع صدرها وردفيها تكون ، معادلة جبرية صعبة التطبيق ، قانونا من قوانين الطبيعة .. لاشىء به خلل ، الجميع يعرفونها .. ويغدقون عليها الوانا من الرعاية والإهتمام .. وكانت اشجان تتطلع الى حياة تشبه جمالها .. منفردة .. لها مذاقها الخاص ، الجميع يقلدونها لطريقة حديثها التى تشعرك بأنك امام فراشة هائمة ، تذوب رقة .. وتتيه غراما .. فراشة تغريك بملاحقتها والإتيان بها .. لتعود صفر اليدين لسرعة إنفلاتها من بين ناظريك .. وعندما تتحدث ! تسمع موسيقى عذبة هادئة .. تنبعث أنغامها من بين ثغرها الذى يشبه حبة الفراولة ، ووجهها الهادىء .. يرغمك على إطالة النظر ، والتحديق فيها .. وفى ذلك العمر ترى الفتيات وقد أرسلن مشاعرهن على أهوائها ... واطلقن لخيالهن العنان ، فتسفر أحلامهن عن بعض العواطف المريضة .

فتتخيل الفتاة أن معلمها يحبها .. لمجرد

طريقته المهذبة فى معاملتها وتتعلق به وتذوب فى حبه واخرى تعشق ابن الجيران الذى ينشد لها كل ليلة – بعد ان ينام الجميع سيمفونيته الخاصة التى تشبه زقزقة طائر الليل .. فتفتح النافذة لتبادله الاشارات ، وغيرها ممن تهوى الفنانين .. وتتمنى كل التمنى ان تكون ملكة اغراء . ربما كن فى مثل جمال اشجان .. ولكن .. ! لسن فى جاذبيتها ، ورقتها ورائحة انوثتها الدافئة التى يحسها الرجال من بعد .

من بين كل هذه الطموحات .. كانت هناك رغبة ملحة تملأ أشجان ، رغبة قوية عارمة تسرى فى أوصالها .. بأنها لابد وحتما ان تتزوج رجلاً عظيما .. يختلف عن كل الرجال .. فتراها تحفظ تاريخ العظماء .. قادة المعارك والحروب والفكر .. رواد المجتمع وفنانيه .. وعندما تدخل غرفتها تكتشف فى لمحة سريعة أنها عبارة عن معرض يضم لوحات وصورا لأكثر عظماء العالم خاصة العلماء .

كنت اشارك شقيقتها ياسمين الرأى فى أن اشجان مولعة بالعظمة والشهرة .. حسبها فى ذلك إنها جميلة .. وأن هذا الجمال لم يخلق للكد والعمل .. فالمرأة هى الجمال والرقة والانوثة .. والرجل هو عقلها وقوتها ولكى تكتمل معادلة اشجان لابد أن يكون هذا الرجل فذاً بمثل جمالها .. رجلاً خلاقاً يتحدث عنه الجميع .. وكبرت هذه الرغبة بداخلها .. حتى بات شيئا مألوفاً أن يتقدم لخطبتها كبار القوم واعلاهم .. ولكنها كانت تسعى للعبقرية .

تقطع خلوتها ياسمين .. بقول ساخر وهى تشير الى إحدى الصور المعلقة على حائط غرفتها :

ـ ياللعجب ! أهذا وجه يستحق النظر اليه ؟ كيف تطيقين رؤية مثل هذه الأوجه ؟

تجيبها بسعادة وهى تتأمله :

ـ هذا الرجل يا جاهلة كان سبباً فى تحرير شعب بأكمله من براثن الطغيان .. رجل استطاع تغيير تاريخ دولته .. فهذه الملامح تخفى عقلاً

حاداً .. يشتعل ذكاء .. وجمال الرجل فى عقله وليس فى ملامحه أو مظهره .

تقول ياسمين بتهكم :

— ذكاء .. فكر .. وابتكار .. كل ذلك جميل أما وأن أمسى وأصبح على مثل هذه الأوجه فهذا ليس جميلاً بالمرة .

— أنت ساذجة ولا تعرفين قدر هؤلاء .

وراحت تقص عليها تاريخ كل منهم .. تحفظه عن ظهر قلب .. فكان شغفها بالعظماء يدفعها لمعرفة سيرهم الذاتية .

ثم قالت بتمنٍ :

— أنا لن اتزوج الا واحداً يشبه هؤلاء .. رجل يتحدث عنه الجميع .. صغاراً وكباراً — واردفت قائلة :— باختصار أن يكون عظيماً .

تسألها ياسمين وهى تشير الى أسوأ وجه معلق على الجدران :

— حتى لو كان يشبه هذا !

تجيب بثقة :

– حتى لو كان يشبه هذا .

ظلت أعواماً وأعواماً وهى اسيرة هذا الحلم متخيله انها تسير متأبطة ذراع رجل .. تتيه به على الآخرين .. يجرى خلفه الصحفيون والمصورون .. وتظهر صوره فى المجلات والصحف متحدثة عن معجزاته وانجازاته .. ووراء كل ذلك ستكون هى .. تقف بجواره .. لتجنى ثمار هذا النجاح .. دون جهد أو كد فهى جميلة .. وسيبتعد عن العالم كله لتنفرد به هى وبعقله .. رجل يسألها الناس غير مصدقين :

– أحقا أنت زوجة فلان ؟

لتجيب هى بسعادة :

– نعم أنا زوجة فلان الفلانى الذى اختارنى أنا دون الفتيات جميعاً .

* * *

عندما التقت به .. كان قد نيف على الاربعين .. رجلا جادا متزنا لا يتحدث إلا

بالقدر المطلوب ... يعيش في عالم خاص به ، عالم غريب .

والحب .. !

لعبة التائهين وملهاة الفارغين .

والتضحية !

هراء يتشدق به كل فاشل ، اضطره الوضع على التنازل .

كانت هذه هى آراؤه .. حادة ، قاسية ، لا يقيم وزناً للشعور أو الوجدان يفكر بقلبه ويحب بعقله .. جذبتها غرابته وجديته .. فلم تتردد لحظة واحدة فى قبوله .. حذرها الجميع .. إنه عنيد .. لايسمع غير صوت نفسه .

قالوا :

— فاتر !

قالت :

— هادئ .

قالوا :

— عابس !

قالت :

ـ جاد .

حتى ملامحه الجافة دافعت عنها بحرارة وقالت :

ـ انها ملامح تدل على الفطنة والذكاء والعمق .

أحست انها أسيرة عقله الخلاب .. الذى لم يألفه البشر .. فيذهبون فى اتهامه وتأويله كل المذاهب .. كان غامضاً .. ولكن فتنة هذا الغموض أمامها لا تقاوم .. اغراء لا سبيل إلى الصمود أمامه .

يتحدث ! فتمسك عن الكلام .. وتلقى إليه الدنيا كلها بسمعها .

تزوجته .. بلا تردد أو خوف أو تأنٍ .. متخيلة أن العظماء عظماء فى سلوكهم وعهودهم وحياتهم .. كانت منتشية .. إنتشاء الازهار وهى تستقبل الندى على أسطح أوراقها بلهفة أعوام وأعوام من الجفاف .. قضيا عدة أسابيع فى بيت أسرته ثم فاجأها بقوله :

– أعدى أمتعتنا .. لأننا سننتقل إلى بيت آخر .

هللت من داخلها .. فكم راودها الأمل فى العيش بمفردها معه فقالت :

– بيت لنا وحدنا .. لن يشاركنا فيه أحد ..!

– نعم .

– أتجد فيما تقول ؟

– وهل عاهدت فى الهذر ؟ !

ابتسمت لنفسها راضية .. فرغم انه كان دائماً يشعرها بعظمته وضآلتها بجديته وحماقتها .. إلا أن ذلك كان له وقع رطب فى نفسها .

وانتقلا عبر الطائرة إلى بقعة نائية لا تعرف عنها شيئاً وكل ما قاله إنها داخل حدود الوطن وأنها أهدأ مكان استطاع العثور عليه .. وأقبلت على حياتها الجديدة كطفلة تغريها المغامرة .. وغرابة الأشياء .

عندما هبطت الطائرة كان كل شىء على مايرام حتى وصلا إلى البيت الصغير . وكل يوم

يفاجئها بشيء جديد لم تتوقعه .. ولكن سرعان ما تألفه .. ارضاء له ورغبة فى اسعاده .. فالبيت كان معداً بطريقة بسيطة .. غرفة نوم خافتة الاضواء .. مكتب يتوسط معملاً كبيراً .. يضم العديد من حيوانات التجارب المختلفة .. صناديق ، فئران ، وأرانب .. ضفادع وحشرات وميكرسكوب كبير .. محاليل ومركبات فعالة ، ثم شرفة كبيرة واسعة تطل على الصحراء .. لا يظهر حول البيت الا بيت آخر فى نهاية الشارع الذى تطل عليه الشرفة .

حياة غريبة ثرية ، لا يشوبها الملل أو الركود .. غمرتها السعادة .. فهى ستحيا حياة العظماء .. ليس فيها لهو أو هزل .. حياة جديدة عليها . والدكتور أدهم يعد أول مهندس فى فرع الهندسة الوراثية .. الذى بهر العالم بأبحاثه العلمية حول التحكم فى شكل الانسان .. ورغم تخرجها من قسم الفلسفة بكلية الآداب الا انها أصبحت تعى كل شيء فى المعمل ،

أصرت على مشاركته ومساعدته .. فتعلمت طريقة تخدير الفئران ، وتشريحها ، وكيف تحفظ الشرائح الزجاجية .. وكيف تقوم أيضا بفحص الخلية بالميكرسكوب .

والآن .. سنقترب من اشجان وهى ترتدى المعطف الأبيض فى المعمل صورة تختلف تماماً عن اشجان التى عرفناها ! شدت القفاز على معصميها .. وجهزت أدوات التشريح .. ووضعتها على المنضدة .. ثم نظفت الميكرسكوب .. وهى تعد الآن الشرائح الزجاجية .. تضعها فى محلول مختلط بالمياه وقليلاً من الكحول لنقعها عدة أيام .. أخرجت دورق الشرائح القديمة من الثلاجة .. ثم اشعلت اللهب ، ومسكت الشرائح واحدة تلو الأخرى بالجفت الذى غطته بالأوراق الفضية ، وراحت تمررها على النار بمهارة باحثة علمية .

دخل الدكتور ادهم المعمل .. ارتدى معطفه الأبيض .. وبدى كجراح يستعد لإجراء الجراحة

بعد أن تم تجهيز الأدوات اللازمة والمريض ، (الفأر الصغير) فتح صندوق الفئران دون التأكد من صحة اختياره تلاحقه اشجان .. محاولة منعه قائلة :

– كلا يا دكتور أدهم ليست هذه التى تم حقنها بالأمس .. وانما فى الصندوق الآخر .

يبتسم – نصف إبتسامه – قائلاً :

– لست أدرى ماالذى كنت سأفعله بدونك .

تغمرها السعادة .. تزداد نشاطاً ورغبة فى مساعدته .. وتملؤها الحيوية .. فيقول : وهو يمسك فأراً .. فأراً .. من ذيله ليخدره :

– أتعرفين ماالذى سيطرأ على العالم .. إذا نجحت هذه التجربة ؟

تسأله وهى تمسح منضدة المعمل .. وتضع الورق الأبيض السميك عليها :

– ماالذى سيحدث ؟ أنا مازلت لا أفهم شيئاً .

بثقة يجيبها :

– سيتغير الكون .. وستجرى تجارب ربما تسفر عن نتائج لا تتحملها عقولنا الآن .

مازالت لا تعى شيئاً .. فتسأله :

– اعلم أن الاختراع وليد الحاجة .. ولكن ما نفعله ليس لنا به حاجة على الاطلاق .. فماذا يفيدنا إدماج الفأر مع الانسان ... ؟ هل سنأتى بفأرسان .. فما حاجتنا إليه ... ؟

بتعجب وازدراء من ضآلة فكرها يقول:

– ليس الهدف الحصول على فأرسان .

– فماذا إذن هو هدفك ؟

يصمت .. ولا يجيب .. فتعاود الأسئلة باستنكار وتعجب :

– ولكن كيف ستندمج خلية الفأر مع خلية الانسان ؟

يترك ما فى يده.. مرجها إليها سؤالا:

– ماذا تعرفين عن الخلية ؟

تجيبه بشىء من التوتر :

– درستها من قبل .. ولكن لا أتذكر منها

شيئاً .. إلا أن الأعضاء عبارة عن أنسجة .. والأنسجة هى الخلايا .. والخلية هى وحدة بناء وتكوين أى مخلوق

يصمت قليلاً ثم يقول :

— نعم .. ولكن ماذا يوجد بداخل الخلية ؟ !

تجهد فكرها فى محاولة عسيرة للتذكر .. ثم تجيب :

— لها غشاء هلامى اسمه السيتوبلازم .. ويوجد فى مركزها النواة ، وهى دقيقة جداً .

يلاحقها كمدرس .. ينفرد بتلميذه الضعيف :

— وما هى فائدة النواة .. ؟

تتلعثم .. فيمسك ورقة وقلم ليقوم بتبسيط وتسهيل الاجابة فيقول :

— أخطر ما يوجد فى الخلية هى — النواة — فهى عبارة من مكتبة هائلة تضم ٢٢ زوجاً من الكروموسومات .. وزوجا آخر يحدد النوع فى الاناث يسمى س وفى الذكور يسمى ص .. يصبح المجموع ٢٣ زوجاً . ورسم بالقلم خطين

ملتفين حول بعضهما كشرائط الحازون .. نظرت أشجان إلى الخطوط وقد إعتراها الضيق والتبرم من هذه المحاضرة المملة التى لاترى لها أى داع .. ويستمر أدهم فى الشرح قائلاً :

– هذان الشريطان لكل كروموسوم يتراص عليهما عشرات الآلاف من الجينات كما تتراص الحبات فى عنقودها .. وأخذ يضع نقاطاً متفرقة متراصة على الشريط الذى رسمه .. ثم قال :

– هذه مثلاً تعطى لون العين .. وهذه لطول او قصر القامة .. وهكذا واذا حدث خطأ فى جينة من هذه الجينات .. تعطى مرضاً لامفر منه .

تسأله كطفلة :

– أيعنى هذا انه من الممكن الاتيان بطفل أسود العينين .. ممشوق القوام .. غزيـر الشعر .. وفقاً لرغبتنا .. ؟ !

يجيب :

– من الممكن طبعاً .. ولكن كيف ستندمج خلية الفأر مع خلية الانسان .

ـ نعم .. كيف ؟

ـ أهم ما فى النواة هو ذلك الشريط .

ـ وهل شرائط الفأر تشبه شرائط الانسان ؟

ـ الشرائط كلها صورة طبق الأصل من بعضها .. ويرفع القلم .. وهو يقول بتركيز :

ـ من هنا بدأت اللعبة .. لعبة العلم الخطيرة .. لسيطرته على الاشرطة الوراثية .. فنستطيع قص اجزاء منها (من خلية مخلوق) .. ولصقها فى اشرطة مخلوق آخر .

تاهت اشجان منه .. وتعسر عليها فهم ما يقول .. ولم تصل إلى مغزى اللعبة ، التى يلعبها الدكتور أدهم فى هذا العصر! فهذه الاشرطة موصولة بحيث تعطينا انغاماً مختلفة .. ولكن عندما يفصلها ويصلها كيفما يرغب بلا شك سيخرج نشازاً وليس الحاناً .. !

* * *

كانت تقريباً تقوم بمعظم أعمال المعمل والتجربة .. واثناء فحصها لخليتى الفأر والانسان بالميكرسكوب .. ابتسمت وهى تركز بصرها فى عدستى الميكرسكوب .. وراحت تناديه بلهفة وفرح :

— دكتور ادهم دكتور ادهم ....

جرى ادهم نحوها .. وهو ممسكاً بمقصه الجراحى :

— ماذا حدث ؟

— انظر تقدم .. انظر !

جلس مكانها .. وراح يحملق في الخلايا .. فاذا بالسيتوبلازما الذى يفصل بين الخليتين ، يتلاشى وتندمج الخليتين الفأرية مع الإنسانية .

انتفض جريا وهو يقبلها .. البحث نجح .. سأطبق النظرية .

ابتسمت مستبشرة وهى تقول :

— بمفردك .. يا لك من انانى.. لم لا تقول سنطبق النظرية ؟

قال وهو يتأملها بنظرة ثاقبة ليس فيها شيء من الرحمة :

ـ طبعاً سنطبقها .. وهل أستطيع العمل بدونك !

وأصبح ادهم يعتمد على اشجان كل الاعتماد في تجاربه المعملية فقد كانت تقبل على التجربة بحماس وبخطى جسور .. وان كانت لم تفهم بعد مغزاها . وآل اليها معظم اعماله .. ومنحه عذرها الدائم له حق الاستهانة بأمرها .. فأصبح يتغيب عن البيت أياماً .. ويتركها بمفردها بين الفئران والأرانب .

وبعد فترة .. لاحظت اشجان أن الخلية الفأرية الانسانية بدأت تتكاثر .. فتساءلت : أى نظرية تلك التي يود تطبيقها ويحجبها عن العالم كله ؟ والى اى هدف شيطاني يسعى ادهم ؟ !

وطلب منها مراقبة التجربة بدقة وعناية .. خاصة بعد أن بذل مجهوداً معها لكي تستوعب كل شيء .. وبعد فترة وجيزة .. هللت تناديه

كطفلة شغوفة بهذه اللعبة وان كانت أحياناً تحاكيها بالتوجس :

— دكتور .. تقدم .. لقد أكل الفأر الانسان ! واسرع .. ادهم .. بذعر .. كيف حدث ذلك ؟

اكتشف أن الخلية المندمجة اضمحلت .. وتقلصت ، وتلاشت ولكن بقيت خلايا الفأر ، تتكاثر وتزداد .. يعلم جيداً أن ذلك لا يعني السيادة والغلبة على الانسان .. ولكنه يعني أن تكاثر شرائط الفئران كان أسرع .. والسريع يتغلب على البطيء .. لم يمل أو يخمد .. فأعاد التجربة .. بين خليتين فأر .. وكتكوت .. فتسرع اشجان باجرائها بمنتهى البساطة واليسر.. لتظهر نتيجة تجعلها اكثر سعادة .. فتناديه فرحة :

— دكتور ادهم لقد أكل الفأر الكتكوت أيضاً .. وبضحكة مسموعة .. بصوت منغم : ياله من فأر قوى يأكل كل شيء . وكانت السيادة والغلبة للفأر دائماً .

تفكر اثناء تجهيزها الجزر لتضعه للفئران قطعا له بيت آخر .

وبسرعة تنفض هذه الفكرة من رأسها .. اذ كيف تخاله ذلك الرجل العابث ؟ ولكن كيف يقضي هذا الوقت الطويل بعيداً عن البيت .. وعن المعمل ؟ ! ليس له عمل آخر .. بعد حصوله على التصريح بالتفرغ .. فأين يذهب اذن لقد أصبح يتغيب معظم الوقت .

أكلتها الحيرة . لم يعد بوسعها التحمل .. تتساءل :

ماذا يعني وجوده داخل البيت او خارجه .. ؟ ففى كلتا الحالتين ليس معى .. انه مع حيواناته ، ان نتيجة التجربة تؤرقه وترهق ذهني .. اذ ماذا فى ذلك؟ وما شأنى أنا ؟ يأكل الفأر الإنسان او يلتهم الانسان الفأر ؟ لماذا انحصرت كل مهمتي هنا في المعمل سئمت تلك الحياة ..

التي اغرتها بدايتها .. ولكن شعورها بأن مستقبلاً عظيماً ينتظر زوجها .. يغريها بالاستمرار .. بأنها ستكون زوجة أعظم عالم فى الدنيا .. ومن هنا ظلت تمنحه الكثير .

ولما طال اهماله لها شعرت بالضجر وانه لابد من مواجهته وفجأة تحول غموضه الساحر أمامها الى مكر ودهاء .. فأبت قبوله . تفكر فى إهمال فئرانه وتركها جوعى حتى تموت ولكن تأخذها الشفقة بها فما الذى اقترفته فى حقها لتجني عليها ؟

تنظر لاحدى الفئران وهى ترضع صغارها .. منظر جميل .. يحرك غريزة الأمومة بداخلها .. تحدق فيهم بنظرة اغتباط وحسد .. فتقول وكأنها تحاور من تفهمها :

– يالحظكم السعيد .. أين أنا منكم حتى انال منه ما تحظون به ! لم يحرمكم شيئاً .. وحرمنى كل شىء .. لماذا .. ؟ لست أدرى ..! ولم هذه الرغبة الدائمة فى تجنبى ..؟ لقد انحصرت

كل مهمتى فى رعايتكم وتحدد دورى مثلكم تماماً ..! مستحيل أقبل هذا الوضع .. يتركنى لأعمل وأكد .. ولا اعرف أين يذهب ! ألهذا تزوجته ..!

تستنكر كل ما حدث ... فهى لم تتوقع أبداً أنها ستتعب من أجله وانها ستجنى ثمار نجاح زوجها العظيم بهذه المشقة والعناء .

وعندما يأتى .. لا يمنحها فرصة للحديث معه .. وكأن لا يليق به أن يدخل فى مهاترات لاطائل منها .. ويوما .. نسيت تنظيف بيت الفئران الصغير .. فلم تضع لهم الطعام والمياه ،.. دخل البيت فى المساء . وقبل ان يبحث عنها .. دخل معمله ليطمئن على مستقبله — فئرانه — فلمح عدم تجديد بيت الحيوان واهماله .. فاستشاط غضباً .. ذهب الى غرفة نومها ايقظها بذعر .. وقد ارغى وازبد لاهمالها .. فزعت لرؤيته .. ولكنها تعلم جيداً قدر هذه عنده .. فاعتذرت

بأنه قد أخذتها سنة من النوم . فقال بحنق :
ـ ماالذى كنت تفعلينه طوال اليوم لينسيك إطعام الحيوانات ؟
قالت بصوت يقطعه النوم :
ـ كنت مرهقة . فكل يوم أقف اكثر من ثمانى ساعات متواصلة فى المعمل وعندما رقدت على الفراش أخذنى النعاس فلم انتبه الا .....
قاطعها بحدة وهو يخلع ملابسه الرسمية :
ـ كيف يحدث هذا؟ انك لم تقدرى عاقبة هذا الاهمال ! تجربة شهور من الممكن تضيعينها فى ثوان .. أربى الفئران وأطعمها وأحقنها ثم تفسدين كل ذلك لأعيد تربية أخرى غيرها اذا حدث واصابهم شىء ، أقل مسؤولية أنبتها إليك لم تستطيعى تحملها .
نفضت الغطاء من فوق جسدها .. وانتفضت من رقدتها قائلة :
ـ لماذا تخاطبنى بهذه الطريقة الفظة ؟ ؟

الا يمكنك التحدث بهدوء ثم انني لست خادمة وحارسة لفئرانك .

قال وهو يخرج مبسم السجائر من جيبه .. كأنه يقرر مصيرها :

ـ ما الذى تريدين فعله إذا لم تقومى بهذا العمل ... ؟! صمتت .. وابتلعت حزنها .. بعد أن اخرستها جملته .. فلا يوجد ما يشغلها .. او تدافع عنه .. وكل قضيتها انحصرت فى وجوده .. لقد التصقت به .. فترتفع حيث يرتفع هو.. وتنخفض حيث ينخفض هو ، فبماذا تجيبه وهى التى اختارت هذا المصير .. !

قال لها وهو ينفث الدخان :

ـ عندما تزوجتينى .. كنت تعلمين جيداً أننى لست كسائر الرجال فأنا رجل أقدر الوقت .. واقطعه .. اما اذا كنت تريدين أن أجلس بجوارك اليوم بأكمله .. لأنشدك قصائد الغرام .. ونلمز بسير الآخرين .. فليس بمقدورى هذا .. لأننى رجل وهبت حياتى للعلم فقط .

كانت تسمعه بأذن مجردة .. وهي تكتشف فداحة خطئها .. وأنتبهت على قوله :

– رجل ذو عقل ....

فتذكرت قول الآخرين لها عندما حذرها الجميع بأنه لا يسمع غير صوت نفسه .. أناني ... فقاطعته .. قبل أن يعدد لها صفاته الحميدة .. بقوله :

– رجل ليس لديه وقت للعبث .

أشار موجها اصبعه الى وجهها .. وهو يقول بقسوة وتحد :

– لم اخدعك .. ولم اكذبك .. بل كنت تعلمين كل ذلك قبل زواجنا . استعبرت باكية ، وهي ترى خديعة احلامها .. واختيارها :

ولكن ..!

أحقا هي اختارت ..!

اننا حين نحب لا نختار .. وحين نختار لا نحب .. فالحب قدر لا مفر منه . ثمانية أعوام ، وهي تقاوم بصمت .. متحملة نتيجة اختيارها ..

بعيدة عن أهلها وأقاربها ، بعيدة عن الحياة ، لم تشعر بوجودها كأنثى لها شريك ، ورفيق .. وتبدل كل شيء .. أصبحت هزيلة .. حزينة ، تتحمل بإباء .. كطائر قوى الجناح لا يريد أن يسمو فوق رفيقه وهو يحلق ..!

يتردد فى وعيها هذا السؤال :

— احقيقة هو .. أم خيال ؟!

وعدنى خيالى الدرجات الرفيعة فى مملكة السراب .. فعشت احلم ، واحلم .. حتى تعرى سباتى .. لماذا تزوجنى اذا كان راغبا عنى زاهدا فىّ ؟ أمن أجل رعاية حيواناته .. وتربيتها ؟ ولكننى احببته رغم اهماله ، وفتوره ، وانانيته ، احبه ..!

وماذا يفعل المرء اذا ما أدمن القلب الحب ؟ ماذا يصيبه عند الاقلاع فجأة ..؟ ترتعش فيجيب عقلها بشىء من السخرية :

— الهذيان الرعاش

وعبثا تحاول جاهدة ان تصل لهدفه من

الزواج .. دون جدوى .. وتحاور ذاتها .:
أتراني قصرت فى حياتى معه ؟ فعجزت عن
لعب الدور الملائم الذى يتناسب وزوجة كبار
علماء العالم ..؟ ام نتيجة التجربة الفأرية وفشلها
جعله يقسو علىّ ؟

وبتعجب واستنكار تقول :

ـ وما شأنى بذلك .. أأنا قلت للفأر التهم
الانسان والكتكوت ...؟ تأخذها الحيرة .. وتكثر
من حولها علامات الاستفهام :

أهو يستصغرها ...؟!

يشعر بضآلتها .. تجاهه .. ولذلك اهملها ؟!

* * *

خيم السكون على كل شىء .. واستحال
البيت الى وحشة مخيفة .. كوحشة القبور ..
لابارق فيها ولا خافق .. وظل قلبها يدافع عنه ..
مؤمنا بأنه مهما بلغت القسوة بالقلب الانسانى
وغمرت شهوة الانانية شعوره ووجدانه فلا بد

ان تهب عليه من حين لآخر نفحة من نفحات الفطرة الالهية .. تنعشه وتوقظ شعوره .. فيستطيع ان يعود الى نفسه .. وظلت هى طوال تلك الأعوام .. تنتظر .. وتنتظر تلك النفحة الفطرية التى اتت كل البشر ولم تأته بعد ... تعيش معه على امل واحد .. انه قد يفهم يوما ، ان معه امرأة .

تحدثه بلهفة .. فيجيبها بفتور .. باحاطة شاملة منها .. وبدون اكتراث منه .. ورغم انه يخذلها دائماً .. الا انها لم تمل هذا الحوار الذى استمر لعدة أعوام من طرف واحد .. تسترقه قائلة :

– هل ستظل هكذا مشغولا .. مشغولا ....!

يجيبها باستهتار .. بالنغمة الوحيدة التى راح يعزفها طوال حياته معها :

– عندما تزوجتيننى كنت تعلمين أننى انسان ذو شأن وقدر .. لست تافهاً .. بلا قيمة ..

وعليّ ان اعمل من أجل الرسالة التى خلقت من اجلها .

تقاطعه بهمس وتعجب :

ـ رسالة ..!

يردد بغرور :

ـ اجل الرسالة .. فالعلماء ورثة الانبياء .. وفجاة يتذكر سؤالها .. وكيف هو مشغول .. فيقول :

ـ كيف تسألين سؤالا يسفر عن جهلك .. انك لم تستوعبين حتى الآن حياة باحث علمى .

تحاول ان تبتلع خجلها .. فتقول :

ـ ولكن .. أليس لهذا الباحث حياة ..! الست رجلا .. !

ـ حياتى هى تجاربى .. رسالتى .

بحدة تقاطعه :

ـ أمنحتك هذه الرسالة حق اهمال زوجتك ... ؟

وباستنكار تضيق :

ـ من اجل الحيوانات .. ثم ماذا ستجنى من جراء هذه اللعبة السخيفة ....؟

بسخرية يسألها :

ـ اى لعبة تتحدثين عنها ؟

ـ التهجينات الغريبة التى تقوم بها .. فأر وانسان ! كتكوت وفأر ! ضفدع وانسان ..! فما ذنب تلك الحيوانات التى تشرحها يومياً .. وتشتت أجزاءها ..؟ من أعطاك حق اللعب بحياة هذه الكائنات ..؟ ألم تسأل نفسك يوماً عن جدوى افعالك وتجاربك تلك ..؟ وهل يحل لك ذلك ام يحرم ؟ أم تظن انك اله الكون بعلمك ..!! فيحق لك اللعب والعبث بالمخلوقات .. فتحقن هذا .. وتجرح ذاك ! تطعم هذا وتحرم غيره الى أى هدف تسعى !!

وبعد أن صمتت .. وكأنها قد افرغت كل طاقتها .. قال بهدوء ووقار :

ـ اولا .. أنا لا ألعب بالحيوانات .. لأننى سأرقى بها .. سأمنحها ، صفات سامية ..

تجعلها تفهم .. ألم أقل لك يوما إننى وضعت نظرية خاصة .. وبحاجة لوقت ومجهود لتطبيقها .. الم تفهمى بعد .. أن ما أفعله سيؤثر على الكائنات الحية كلها !

قالت محاولة التظاهر بأنها تقدر اهمية وخطورة تجربته :

ــ ولكنك تتغيب عن البيت اياماً وتتركنى هنا وحدى بين صحراء مهجورة فأين تذهب .. اليس من حقى معرفة ذلك ..؟

ايقن أن ثورتها الانثوية اندلعت .. حتى كادت تشمل تجاربه ، وحيواناته .. فجذبها برقة من يدها .. متجها الى الشرفة ثم أشار الى آخر الشارع وقال :

ــ هناك مملكتى التى عشت احلم بتجهيزها .. وقد اقتربت من تحقيق هذا الحلم ... فكما عشت تحلمين بالزواج من عالم .. عشت احلم بتكوين هذا القصر الصغير .

فكما تعودت منه .. الاتيان بكل ما هو

غريب ، ومثير .. فاجأها بتلك الغابة الصغيرة .. وبصوت يملؤه التوجس والحذر .. قال :

ـ لا اريد ان يعرف أحداً مكانها .

ابتسمت ساخرة .. وهى تقبل بمرارة :

ـ وهل يزورنا أحد .. لانقل له هذه المعلومة الخطيرة ..!

اجابها بحنق :

ـ انك دائماً لا تحاولين أن تفكرى بعلوية .. فأنت لا تهتمين سوى بجمالك ، وبتهكم وجه اليها سؤالا :

ـ اجيبى على كم عدد الساعات التى تستغرقينها كل يوم امام المرآة ؟ منذ تزوجتك وأنت على هذا الحال .. وأنا لا أتكلم .

لم تجب .

شعر بأنه جرحها .. وطعن أنوثتها .. فأردف قائلا :

ـ نعم .. ان ذلك مهم ..

وبتأمل .. وهو يشعل سيجارة .. أضاف قائلا :

ـ ولكن هناك اشياء أهم .. اخطط لها ولابد أن تساعديننى ، ألست شريكتى !!

هللت من داخلها ـ رغم كل ما قاله ـ وباستجابة نابعة من القلب قالت :

ـ ماذا بوسعى أن أفعل من أجلك ..؟ هل سألتنى شيئاً وقصرت فى تنفيذه ..؟

نظر اليها .. وكأنه يذكرها بأبشع جريمة اقترفتها فى حياتها .. وهى نسيانها إطعام الفئران ، وبيت الحيوان .. فقالت على اثر نظرته :

ـ ألهذا الحد تهتم بها ..؟

تثير ضجره .. فيقاطعها بضيق :

ـ كيف أشرح لك قدر هذه الحيوانات فى التجربة ؟

تضحك محاولة معاكسته :

ـ أجل يا سيدى عرفت قدرها .. واقدم الولاء والطاعة لها .. علك ترضى عنى .. ولاتغضب هكذا .. ولكن أليس من الممكن أن تعتبرنى

فأرة .. فتطعمنى وترعانى مثلها ....!

يقترب منها .. ويمسح بكفه على شعرها .. وهو يهمس :

— ولكنك فأرة — شقية — كثيرة اللغو .

يرق .. يلين .. فتبدو كفراشة هائمة .. تحلق نحو ضوئه بسعادة غامرة غير مصدقة انه انفق خمس عشر دقيقة من أجلها .. وفى هذه اللحظة شعر بأنه قد حان الوقت .. لتكون على أس المحو من اهتمامه ، وانشغاله .. لتؤدى الدور الذى اختاره لها .. بإتقان وعناية .. وعلى أكمل وجه ممكن .. لتصبح أكبر وأهم فأرة فى معمله .

* * *

كان يعلم جيداً متى يليق به أن يتحدث ومتى يجب عليه أن يصمت .. واثقاً كل الثقة أنها لن ترد له أمراً .. ولأول مرة راح يطيل النظر اليها .. كانت عيناه فى زرقة السماء .. ولكنهما مخيفتان .. تطل منهما روح بدائية .. وحشية ..

يخلع نظارته السميكة .. العتيقة .. ثم يتأملها ، بعد أن اطبق الأوراق التى كانت بين يديه .. ثم قال بصوت جهورى انبعث منه خلسة :

— ولم لا !

انتفضت مشاعرها فرحة .. بتغيره نحوها .. وانه سيسفر عن غموضه لتنتهى حيرتها التى ازدادت أعواماً .. وأعواماً .

لف ذراعه حولها .. فسكنت اليه سكون الطائر الغريب الذى انهكه البحث عن وليفه طوال اليوم .. كان واضحاً عليه انه يريد أن يكشف عن شيء ما .. ان يفضى بعاطفة . ينوء حملها .. وكلما ضمها اليه شعرت بأنه قد رد اليها بُعد طول غياب .. وأصبح كثير الاهتمام بها على غير عادته .. لا يفارقها لحظة واحدة ، غمرتها الفرحة كطفل تائه اعادوه الى أبويه ..

وجاء ليمارس لعبته من جديد ليفاجئها بشيء غريب .. كعادته الساحرة والمبهمة .. تهيأ للنقل الى قصره الغريب .. لم تشك لحظة واحدة فى

تصرفاته الجديدة .. فهكذا عودتها .. حياته المتقلبة . فتارة هو متلهفا .. وأخرى فاترا .. أحياناً يعمل بسعادة .. وأخرى بتجهم وعبوس .. وتتهم ذاتها بالحماقة قائلة :

— كيف لم اقدر عمله .. وعلمه ؟ وكيف انتابني الشك في انه انسان سوى .. واتهمته بالبلادة والركود .. وهو شعله من الاحساس والوجدان ..

وعادت تتحرك بخفة ونشوة كطفلة ردت اليها دميتها .. ولأول مرة تشعر بأنها امرأة .. متزوجة . وفى اثناء نقل امتعتهم .. كان يدور حولها يقترب منها .. محاولا توضيح شيء ما ، لم تفهمه .. ولم تزدها المحاولة الا غموضا .

هو يدرك جيداً انها لن تستوعب نظريته فى جرعة واحدة .. فراح يغذيها بالفكرة جرعة .. جرعة ، وينسج خطته — فتلة .. فتلة — يحدثها عن مجهول لم تعرفه فيقول :

— عشت عشرين عاماً أبحث من أجله ..

ولكن قد آن الأوان لميلاده أتعرفين يا اشجان ..
ماذا سيصبح ؟ سيكون أغرب الكائنات ، وأذكاها ..
تسأله :

— من هو ؟

لم ينتبه لسؤالها فيستطرد قائلا :

— وسأصبح أنا صاحب أقوى نظرية علمية في رقي الحيوانات .. وتخليق سلالة حديثة لم توجد بعد .

رددت قائلة :

— اى نظرية .. تلك التي لا تفكر الا فيها ؟ فتصبح وتمسى من أجلها ؟

ينتبه بغتة .. وكأنه كان يتحدث اثناء نعاسه .. فيحاول بطريقته الجذابة نقل معلوماته وتبسيطها لها .. وكانها طفلة تتطلب مزيدا من الامثلة التوضيحية ، وكثيراً من التفاسير .. حتى تفهم ما يقول .. كان يشعر بمتعة وهو يبذل قصارى جهده في توضيح أبحاثه لها .. وكان هذا من أسرار تعلقها الشديد به .

قال وهو ممسك بصور لأنماط متعددة من القرود :

ـ ان أقرب فصيلة تشبه الانسان هى فصيلة القردة العليا ، وعاد يتصفح ويقلب الاوراق .. فتظهر صور القردة المختلفة .. من قرد الليمور ذو الذنب الطويل والمكاك الذى لا يختلف اطلاقاً عن الانسان والقرد العنكبوتى والاورنج اوتان والجيبون ، وتوقف عند الشمبانزى .. الذى شعر أنه أمام مرآة مشوهة .. يشاهد فيها صورة غريبة ومسلية لجسمه وملامحه ، صورة مضحكة .. وابتسم وهو يحملق فى صورة الشبمانزى .

وبغتة .. خلع نظارته .. ونظر الى ملامحها .. وتعلق بصره بوجهها وراح يتأملها وظلت عيناه تدور ما بين ملامحها وصورة الشمبانزى التى تحملها يده .. وفى عينيه اصرار بأنه قد آن الوقت لتطبيق نظريته المجهولة .

* * *

الفصل الثانى

تعلقت عيناه بوجهها . فسألته بعد أن تقلصت عضلات وجهها ، غضباً إثر نظراته المتفحصة :

ـــ هل أنا اشبههم ؟

ضحك ضحكة عالية .. لم تألفها من قبل .. ضحكة خالية من الغموض مليئة بالسخرية ، والعظمة .. ثم قال وكأنه يفسر هذه النظرة الغريبة بتأملها : ـــ لقد نتج البغل من تزاوج الحصان والحمارة .. وجاء السيسي من تزاوج الفرس مع الحمار .

لم تعر جملته اى اهتمام .. وقالت بدون اكتراث :

ـــ وماذا فى ذلك ؟ انهم من فصيلة واحدة ـــ فصيلة الحيوانات ـــ فما غرابة ذلك ؟

— غرابة ذلك تكمن فى أن الانسان أيضا يتبع فصيلة الحيوانات .. فهو لا يزيد عنهم الا بالنطق .. فهو حيوان ناطق .

قالت بابتسامة عذبة .. وكأنها تضيف اليه معلومة يجهلها :

— قرأت انه حيوان ضاحك .. لأنه .. الوحيد ..

قاطعها .. بعد ان شعر انها ستحول دون وصوله للهدف فقال :

— ضاحك .. ناطق .. المهم انه جاء بعد تطور كل هذه الحيوانات المخلوقة ، اذن فهو على رأسهم .

— لا يمنع ذلك انه منهم .

اقتربت منه فتظاهر بالرضا .. بعد أن أصبح لا حديث له الا عن الحيوانات والقردة .. الجينات والنظرية .. أشياء باتت تضجرها .. قالت :

— وماذا يضيرك .. منهم .. أو ليس منهم ؟

أجاب بتركيز :

– البغل ..

باستنكار تقول :

– ماذا به هو الآخر ؟

– كما جاء البغل .. سيأتي كائن آخر .. مخلوق جديد .

امتقع وجهها .. ولكن يبدو أنه أصبح فى حالة يصعب فيها تغيير الحوار أو قطعه إذ ظل يتحدث بتفصيل اكثر .. واطرق قائلا :

– التجربة التى أجرينا عليها قص الكروموسومات وتغيير وضع الجينات واستبدالها أثبتت أننا نستطيع اجراء ذلك على كروموسومات القرود .

تشاركه بفتور :– وما دخل كروسومات القرود بالكائن الجديد ؟

– لكي يتم تلقيح الشمبانزى بفصيلة اخرى تشبهه .. لابد أن يتساويا في عدد وحجم الكروموسومات ..

واخذ يرسم الكروموسومات — خطين متقابلين كالمقص — ثم يكرر الرسمة ويقطع من أحد طرفي المقص .. ليلصقه بالآخر قائلا :

— هكذا تتبادل الجينات .. وتتبادل الصفات الوراثية فيأخذ الوليد صفة من الأب .. واخرى من الأم ..

كان يدهشها دائماً .. ان نقطة صغيرة تسمى جين تتحكم في مصير الانسان فتجعله قصيراً او طويلاً .. أبيض او أسود .. حتماً تغيير واستبدال هذه الجينة من كروموسومات خلية الانسان سيقلب موازين حياته رأسا على عقب .

وراح العلم يصور لها رهبة هذا المستقبل .. فربما يأتي عالم متهور ، يتمكن من تلك اللعبة .. فيجعل اناسا يتحلون بجميع الصفات الراقية الجميلة .. ويبدع من تكوينهم .. ويجعل آخرين أقزام .. بذيول مثلا .. أو سود .. ليكونوا هم العبيد .. ويزدادون بالوراثة .. عبيداً .. لسادة القوم . وشرد فكرها .. بينما راح ادهم يحدد

النقاط الرئيسية والاساسية للشمبانزى مثل عدد الكروموسومات التي وجدها ٤٨ كرموسوماً .. اى تقترب من الانسان الذى يحتوى على ٤٦ كرموسوماً . وفترة الحمل التي تبلغ ٣٤ اسبوعاً . عمر البلوغ الذى يساوى ١١ سنة . حتى متوسط عمر الشمبانزى كان يأخذه في الاعتبار فهو يتراوح بين ٣٠ ـ ٥٠ عاماً .

تثاءبت .. فقال بحماس متجاهلاً نعاسها :

ـ حياة الشمبانزى .. وسلوكه .. لا تختلف كثيراً عن حياة الانسان .. انظرى وراح يقلب صفحات أبحاثه .. ولقطاته الفوتوجرافية التى التقطها للقردة ، بمهارة وفن .. ويشير باصبعه على كل صورة ليوضح لها ماذا تعنى ؟ ودارت عيناها بين هذه الاشكال المتعددة .. فتارة يضحك مثلنا .. فيفتح فمه ، وتفتر شفتاه الغليظتان عن ابتسامة بسيطة .. يظهر فيها فكاه العريضان ذوا الأسنان الكبيرة المنتظمة .. وتارة اخرى يفزع .. فتراه فاتحاً فمه ، بطريقة

3—439

مستعرضة مع النظر بتوجس .. وأحياناً يضم شفتيه ويغلق فمه فى حالة اليقظة .. فيبدو كمفكر يبحث عن فكرة شاردة منه .. مع نظرة حادة ثاقبة .. قال ادهم .. وقد قطع عليها متابعتها للصور :

ـ انه يعبر مثلنا تماماً .. والاطرف من ذلك انه يلعب ويلهو ، ويغضب .

سألته :

ـ هل يفكر ...؟

واطرقت بسؤالها على وتر النظرية التى ينشدها فقال :

ـ الشىء المثير .. أن مخ الشمبانزى يعد اكبر الحيوانات حجماً ، بعد الغوريلا طبعاً .

فحجم مخ الجيبون ١٠٠ سم٣
والاورانج اوتان ٣٧٥ سم٣
والشمبانزى ١٣٦٥ سم٣
والغوريلا ١٣٩٠ سم٣
والانسان ١٣٩٠ سم٣

ونظر اليها .. شعر بارهاقها وهى تصارع النوم .. لتعى ما يقول . وراحت فى سبات هادئ .. بعد أن اضطر أن يصمت رغم انفه .. تحت وطأة ، هذه النشوة من الفرح الذى كان يحس أنها ستشطر قلبه .. وأنه لم يعد هناك متسع من الوقت لتخير تطبيق نظريته .

* * *

نهض من فراشه وسط الليل .. فالفكرة تؤرقه .. يكتب خطوات التجربة التى سيجريها .. وان يطلع عليها مخلوق .. لأنه سينفرد بنظرية «تطوير الكائنات» وظلت النظرية تعبث بفكره طوال اليوم .. ولكن كيف سيعرض عليها المسألة ؟! فرغبتها فى التضحية واضحة لا شك فيها .. ولكن هل ستقبل المقامرة ؟ واذا قبلت هل يضمن نجاحها ؟ يقرر .. تنجح او تفشل لابد من اجرائها .. تتقلب فى مضجعها .. لم تجده بجوارها .. تنهض .. لابد انه فى مكتبه

كعادته المجنونة .. ولكنه لم ينم لحظة واحدة طوال اليوم .. ترى فيما يفكر ؟ دخلت غرفة المعمل .. وجدته جالساً فى مكتبه .. وقد وضع كفه على وجنتيه ، متكئا بمرفقه على المكتب .. وكأنه سيصدر حكماً على متهم ويتحرى دقة حكمه قبل اصداره .. تتحرك ببطء أمامه .. كان شاردا .. فلم يشعر بوجودها تتساءل :

ـ ألهذا الحد .. المسألة خطيرة .؟ مستحيل .. أن يكون هذا الصمت المريب .. والشرود الحائر .. لمجرد نظرية يود تطبيقها ، لابد وان هناك شيئاً ما .. يخيفه .. تمسك يده .. يرفع اليها بصره بذعر .. تسأله بخفوت :

ـ ماذا بك يا ادهم ؟ فيم تفكر ؟ ان أحوالك على غير ماترام .

وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى نطقت فيها اسمه مجرداً دون القاب وكأنها تحس قربه .. سألها :

ـــ اشجان هل تحبيننى ....؟

جاءها سؤاله غريبا .. لم تتوقعه .. ادهشها وقت القائه ، تضحك وكأنها تقرر حقيقة لا تستحق الجدال وهى تقترب منه وتهمس :

ـــ ألم تشعر .. بعد ..!

ينظر لها نظرة مريض قد اوشك على الهلاك .. وهى وحدها التى تملك انقاذه .. تردد بعطف وحب :

ـــ اذا لم تشعر بعد .. فامنحنى فرصة اثبات ذلك .. وقل لى ماذا بك .. بل ماهى حاجتك ؟

واردفت تقول على إثر نظراته اللهفى :

ـــ لا أستطيع أن أرد لك أمراً .. فأنت اجل من ذلك شأناً وأعظم خطراً .. وكل ما فى الحياة هين الا ان أراك جازعاً او متألماً .

نزلت كلماتها على جسمه سجلا من الزلال البارد .. فحاول أن ينطق .. ولكنه شعر بالعجز .. اذ كيف يصارحها برغبته تلك الشاذة ؟؟؟ أخذها . وسارا الى فراشهما . كلاهما يفكر ...

ولجت بها الوساوس الهموم .. وراحت تعيد موازينها .. هل اسأت اليه دون أن أشعر ؟ لا أتذكر أن شيئاً قد حدث بيننا .. فما الذى حوله عنى ؟ وحاولت أن تستعيد ميقات هذا التحول .. منذ نجاح تجربته التى اجراها على الأرانب — قص ولصق الكروموسومات — رغم نجاحها الا أنه تحول عنى ... لماذا ...؟ اضواها القلق .. توجه له عينيها .. تقول له نظراتها .. ماذا تخفى عنى ؟ ارى فى عينيك رغبة ماحة .. مسألة ما .. تخصنى أنا دون الآخرين ، بتعجب تتساءل :

وهل هناك آخرون فى حياتك غير تلك الحيوانات ؟ لماذا تشك فى تنفيذ ما ترغب ؟ ويعيد قلبها سؤاله .. هل تحبيننى ؟ تتذكر انه لأول مرة يسألها هذا السؤال .. انه يريد شيئاً خطيراً يتعلق بحياتهما .. تسترحمه نظراتها .. فيلمح وجهها الملىء بالتوجس والخوف .. الا أن نظراتها كانت قوية .. يتساءل وقلبه يتمزق :

— هل ستغفرى لى ..؟ رغماً عنى .. من أجل العلم .. لم أجد سواك .. ظلت نظراتهما تتحاور طوال الليل .. كانت عيناها تلمع من خلال بحيرتين سوداوين .. وعيناه من خلال بحيرتين زرقاوين .. وما اشد الاختلاف بينهما .. نظرات تمنح .. وتعطى واخرى تسلب وتقسو .. يغمض عينيه بقوة بعد أن قرر أنه سيسفر عما يريد .. فمنذ متى وهو يفكر .. يرحم .. ويشفق ؟ متى تعلم الرقة والحنان ؟ وهو الرجل الذى عوده العلم ان يفكر بقلبه ويحب بعقله .. فلماذا يتعاطف قلبه الآن ؟ وقارن بين لعبتى الحب والعلم .. فوجد لعبة العلم ارجح واجدى من لعبة الحب .. وهدأ .. ونام بعد ان اوصد على قلبه بالمزلاج .. حتى لاتأخذه الرحمة فيما هو قادم عليه

* * *

فاجأها فى الصباح وهو يتناول فطوره بقوله :

— اليوم سننتقل الى بيتنا الجديد .

– تقصد الغابة !

نعم .. لقد أعددت كل شيء هناك .

حاولت أن تكسر جمود حديثه فسألته وهى تنفض شعرها للخلف :

– صفها لى ؟!

أجابها بحدة :

– سترينها بعد قليل .

يملؤها الاحساس بالفشل كلما حاولت الاقتراب منه .. اعدت كل شيء .. سارا وكل منهما يفكر فى مصيره .. يتساءل :

– هل ستنجح تجربتى .. ويخرج هذا الكائن ؟ يخطو بزهو كائن يجيد اللعبتين .. لعبة الحياة والغابة .

بحزم : – لا يجب التأنى فى تنفيذ النظرية .. وكفى ما ضاع من وقت .. يجب أن يخرج الى الحياة الكائن الجديد وبفخر : كائنا من صنعى أنا وحدى .

تتعثر فى مشيتها وهى تتأمله مستغرقاً فى

الفكر .. مشيته السوية تدل على عزيمة واقتدار .. قرار لا رجعة فيه .. تفكر ...! أتراه يخبىء لى شيئاً فى هذا المكان المهجور ؟ أشعر بأن ما يخفيه عنى .. لن يطلعنى عليه طوال حياتى .. ولكن .. هل من الممكن أن يضمر لى أى عداء ؟ ولم لا ..؟ أترى نهايتى ستكون فى ذلك القصر المخيف ؟ كل شىء غريب .. أصبح من الجائز حدوثه والاتيان به مع هذا الشخص الغريب .. ولأتحمل جريرة اختيارى .. اطاوعه على كل شىء أحمق .. لأرى غاية ما يفعل .

اقتربا من الڤيلا .. قصره الصغير المحدب وسط الصحراء على أية طراز أعده ؟ فقد وهبه الله قريحة وقادة .. وذهنا خصبا .. و مخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الاشياء .. والتأليف بين المتنافرات فصمم قصراً بديعاً لغابة من الحيوانات .

وكلما اقتربا من القصر .. راعتها تلك الأصوات الغريبة .. واختلط بسمعها نعيق البوم بجرجرة البعير .. وبث التيس بزمير الظليم .. ونحيح

الحية بنقيق الضفادع ولم تفرق بين عواء الذئب
وضغاء الهرة .. وغواق الغراب بثغاء ، الشاة .
جاءتها تلك الأصوات بدءا من الدرص وحتى
الشبل مع الريح العاصفة والاشجار المترنحة ..
فرقة موسيقية هائلة مكونة من المهر والحمل ..
والرال والغراب .. والفرغل والسنور .. تعزف
مقطوعة منفردة .. تسمعها ما لم تسمعه يوماً من
الأيام فى حياتها .. سيمفونية مريبة من صنع
الطبيعة . انقبض قلبها .. عندما فتح الباب
الموصد .. وبسرعة البرق قفز من فوق الشجرة
الشمبانزى الصغير .. وتعلق بعنق ادهم .. وراح
ادهم يحتضنه ويداعبه .. وضع كفه في يده
وسار كمن يسير مع صديق عزيز ، افزعها
رؤية ذلك المنظر . سارت خلفهما .. لأول
مرة تراه يداعب كائنا ، تغمره السعادة وكأنه قد
عثر على ضالته . تمر على اقفاص متعددة
صغيرة و كبيرة سميكة وعريضة . تلفتت باندهاش
متسائلة :

— متى جمع كل هذه الحيوانات ؟
وفجأة .. سمعت صوتاً فظيعاً ، غير مألوفاً ، اتجهت لمصدره .. فاذا بها الغوريلا وقفت تقول لها بصوت متهدج : حتى أنت أتى بك الى هنا بالجرأته ...! ثم سمعت صوتاً آخر .. زئيراً .. فاذا به الرئبال يقف وقفته الهصور ، تقف أمامه خائفة .. متسائلة : هل تزوجت من مختل ؟ قضى حياته كلها يجمع هذه الحيوانات .. ليأنس بها ..!! زاهداً فى الحياة راغباً عن الناس .

صعد وصديقه الى مكتبه .. وتخلفت عنهما .. فتارة تقف متعجبة ، وأخرى مندهشه .. وتسمرت قدماها أمام الحيوانات .. وفجأة شعرت بشىء يعبث فى خصلات شعرها .. تلاحقت انفاسها ، وارتجف قلبها ابتلعت أنفاسها .. ثم اغلقت عينيها خوفاً من رؤية هذا المجهول وكأنما قد حانت نهايتها .. خارت قواها .. واحست أن الارض تميد تحت قدميها .. وألتف أمامها ..

فصرخت صرخة مدوية .. هبط على أثرها ادهم وأمسك الشمبانزى .. يعنفه بقوله :

– تعالى هنا .. متى نزلت وتركتنى .. لا تخافى .. انه يحييك – تخفى وجهها بين كفيها .. تنتحب وتقول :

– كيف تتركنى وحدى هنا !

وضع يده على أحد معصميها .. والاخرى على كتف الشمبانزى .. بدفعهما الى السير .. ويوجه حديثه للشمبانزى :

– أهكذا .. تفزعها .. اما انك غبى صحيح .

يتقدمهما الشمبانزى ويقفز أمامهما بخطوات بهلوانية وكأنه يقودهما الى الطريق .. فتسأله وهى تجفف دموعها .. وتبتلع اضطرابها :

– هل سيرافقنا الى البيت ..!

ضحك ادهم بدون اكتراث ..

تهز يده بعنف .. لتشد انتباهه بالارتياب الذى ملأها وتقول :

– مستحيل أن يرافقنا ؟ هذا غير معقول .

يجذبها قائلا :

ـ هيا .. الآن .. لنؤجل الحديث .

تصعد معه رغم انفها .. لقد سئمت أحاديثه .. وكم كانت تسعدها ، جلستها البسيطة بين عقل وفكر عالم كبير .. ولكن ما أشد سخطها الآن ، لقد ضاقت بتصرفاته ذرعا ..!

يخاطبها .. امامه .. يجلس كلاهما على مقعدين أمام مكتبه .. يمسك الشمبانزى الورقة والقلم ليقدمهما اليه ..

فيضحك قائلاً :

ـ دعك من هذا الآن .

تندهش .. ينظر اليها الشمبانزى بتأمل .. نظرة لا تختلف كثيراً عن نظرة ادهم .. وتطيل نظراتها مستفسرة وكأنها تقول : علام تتفحصنى ؟! وماذا تريد منى أنت الآخر ؟ ثم تقول بصوت جهورى للدكتور ادهم :

ـ أرأيت كيف يحملق فيّ ؟ لماذا يحدق فيّ بهذا الشكل ؟

يجيبها بهدوء :

ــ انها نظرة اعجاب .. فهو يرى اجمل انثى على وجه الارض .

حتى غزله .. جاءها فاتراً .. سخيفاً .. فقالت :

ــ اعجاب .. ام افتراس ؟ !

همس :

ــ وهل يوجد من يجرؤ ويطاوعه قلبه على افتراسك ؟ !

تقول بعنف وقد نفد صبرها :

ــ ارجوك اخرجه من هنا .

يقول بحزم :

ــ لا تكونى عنيفة هكذا .. اهدئى .. ولا تمارسى معه لعبة القط والفأر .. انى أود أن آخذ قسطاً من الراحة .

قالها وكأن تعب الدنيا كله قد تجمع فى لحظة واحدة رغبة فى الاستقرار والراحة واضحة فى عينيه . تبتلع احساسها بالمرارة والحسرة وهى

تكتشف ان راحته تكمن بين أركان هذا البيت ، أعمدته الممتدة المخيفة .. وبما يحيطه من حيوانات ضارية وأشجار كثيفة .. كل ذلك كان خليقاً بقطعها : انه لاشك هاربا من الحياة وقسوتها .

* * *

بعد ان اعدت الفطور .. جلس منتظراً .. سألته وهى تعد فنجاناً من الشاى :

ـ ماذا بك ؟ أراغب عن الفطور ؟

قال :

ـ فلننتظر قدوم سنوسى .

سألته مستفسرة :

ـ من هو سنوسى .. وكيف تدعو شخصاً غريباً للفطور ؟

اقترب الشمبانزى .. فناداه ادهم قائلا :

ـ تقدم يا سنوسى .. واجلس هنا بجوارى .

افلت من بين أصابعها براد الشاى فوقف متذمراً :

ـــ ماذا حدث ؟

اخذت تنفض ملابسها بعصبية بعد أن بللها الشاى وهى تقول :

ـــ مستحيل أن تكون شخصاً سويا .. من يعقل هذا ؟ نتناول فطورنا مع الحيوانات !

قاطعها بعد أن رآها تفقد السيطرة على ارادتها وتحدثه بهذه ، اللهجة الغريبة لأول مرة .. فقال بشيء من الغرور :

ـــ ومن ادعى اننى شخصاً سوياً ..؟

كان الشمبانزى فى اثناء هذه المشاجرة يمد أصابعه ويلتهم ما تقع عليه عيناه بشهية .. قالت وهى تدور حول النمضدة .. تسوى المقاعد بعنف :

ـــ أعلم أنك شخصاً غير عادى .. عالم كبير ذو قدر لايستهان به ، ولكن الشيء الذى لا أعلمه .. ان يأتى عالم مثلك بهذه التصرفات الحمقاء .. تصرفات لا يحتملها بشر .. وانفعلت بشدة .. وهى تقول مؤكدة له :

ـ يجب أن تعلم جيداً أنك تعيش مع امرأة .. بشر .. وليس حيواناً ، لتجاربك .. ولى حقوق يجب احترامها .. اما اذا لم يكن بمقدورك أن تعيش مع امرأة اعنى مع بشر ..

قاطعها :

ـ لماذا كل هذه الثورة ؟ ألا يجوز العيش مع الكلاب والقطط !

ـ ولكن ليس مع القردة والخنازير .

ـ وهجمت بقسوة على سنوسى تمسكه من كتفه وتدفعه بعيداً عن الطعام وهى تقول :

ـ ابتعد أيها الحيوان .. لا اريد رؤيتك .

وقف خلف ادهم منكس الرأس .. كأنه يحتمى به من بطش اشجان ، اخرج ادهم سنوسى من الغرفة .. وحاول أن يهدئ من ثورتها :

ـ وهل أنا أتيت بالخنازير ليعيشوا معنا ؟

ـ من يدرى ؟ ربما تفعل ذلك !

راح يهدهدها :

ـ اشجان .. أرجوك .. حاولى أن تقدرى

حياتى .. فأنا رجل حكمت عليه الحياة ان يؤدى دوراً محسوباً فى المجتمع .. ويجب أن أتحمل ، واذا كنا سنعيش هنا .. فلماذا ....

امتقع وجهها .. وقاطعته بقول :

— مع هؤلاء ؟ مستحيل .

أقترب منها متودداً :

— ما وجه الاستحالة وأنا معك .. ألم تسعدى معى هناك ؟

— هناك كانت حيوانات تجارب صغيرة .. اما هنا ..!

— ولكنك رفيقة مشوارى .. ولابد من اكمال التجربة .

— وما علاقة التجربة بمعيشة الحيوانات معنا وتدخلها فى كل شىء ، أتحتم التجربة ان نأكل ونمسى ونصبح مع الحيوانات ؟

أجابها بهدوء :

— تطور الكائنات الذى أقوم بدراسته يستلزم وجود كل هؤلاء ، كما أن الرقى بهم

يدفعنى للاحتفاظ بهم ومتابعتهم الدائمة .. اما سنوسى .. فلابد من تدريبه على حياتنا لأنه سيكون العنصر الاساسى فى التجربة ..

تحركت بحزن .. دخلت غرفتها .. لاحقها .. قائلا :

ـ ماذا بك يا حبيبتى ؟ لقد اصبحت لا تطيقين حياتى .. فما الذى حدث ؟

ـ لم اعد أفهم شيئاً .. الا أننى سئمت اللعب فى المعمل .

مسح بكفه على شعرها وهو يقول :

ـ ما زالت للعبة بقية .. ولابد من قضائها ، أشجان

تنظر اليه نظرة استنكار .. لرقته المصطنعة .. يسألها :

ـ هل أنت سعيدة معى ؟!

لم يدهشها سؤاله الذى لم يحسن اختيار وقته ..

تنظر له بتعجب (حتى فى حبك يا ادهم تبدو غريبا) وتسأله عيناها :

هل أنت فى حالة حب ؟ هل صحا قلبك بعد ما رقد قلبى ؟ لقد أصبحت مثلك تماماً .. أتعامل بالقدر المطلوب .. بعد ما اكتشفت ان حبى من النوع المريض الذى يمنح ويعطى حتى تصفر يداه .. وتحت وطأة هذا الحرمان .. تعلمت كيف اقسو وكيف اهجر .. أصبحت غريبة مثلك .. بعد ما اضطهد عقلك قلبى .. وتم اجهاض .. مشاعرى .. حياتى كلها كانت مجرد محاولة اجهاض .. ونجحت . وسقط الحب لنصبح قطبين .. وكما يحدث للاقطاب المتشابهة تنافرنا .. تتساءل : أتراه يتعذب ! تنفض تلك الفكرة عن مخيلتها .. مستحيل اصدق ان له قلباً ادمياً .. يعاودها بالسؤال مرة اخرى :

— اشجان لماذا تصمتين ؟ اجيبينى هل تشعرين بالسعادة معى ؟

بفتور تسأله وهى تقلد طريقته فى تناول الاشياء :

– ماذا تعنى كلمة سعادة فى معجم العلم ؟

يتأملها باستغراب .. تقول وكأنها تفسر نظرية هامة :

– الغريب ان الحب والسعادة أشياء لا نتعلمها .. لأنها توهب ولا تدرس ، ولكن فى حالتنا نحن يجب أن نضع نظرية اسمها فن الحياة .

ابتسم ابتسامة بوجهه الشاحب المجهد مردداً بلهو :

– نظرية فن الحياة !

– لا تسخر منى .. فالحياة فن لابد من دراسته .

يضحك متهكماً :

– نضع فى مقرر الطلبة مثلا كتاب اسمه فن الحياة !

– ولم لا ؟

– ومن أين أتيت بهذه الفكرة المدهشة ؟

بمرارة تجيبه :

ــ من حياتي معك .

بجدية وكأنه وضع النظرية الفرضية لحل مسألة جبرية يقرر :

ــ اذن فأنت لست سعيدة معي .. ولذلك تسأمين معيشتي .

تبادله الوضع .. فتبتسم نصف ابتسامة ساخرة :

ــ أخيراً اكتشفت ذلك دون حاجة لميكروسكوب وفئران وتشريح وتجارب ؟

يشعر بمعاناتها .. تسأله :

ــ لم تقل لى حتى الآن ماهى السعادة ؟

بواقعية يجيب :

ــ ان يحقق الانسان طموحه .. فأنا أعتقد أنك سعيدة لأن هدفك فى الحياة كلها تحقق ..

تشعر بمشرطه وهو يمزق قلبها .. فتقول :

ــ اى هدف تقصد ؟

ــ الزواج من عالم .. لقد تحقق ما تصبو اليه نفسك ، فما يضيرك الآن ؟ تمنيت ونلت .

ــ وأنت ماذا تمنيت ؟ لم أرك سعيداً حتى

الآن .. أهذا العقل الكبير لم يستطع تحقيق احلامه .. أليس ذلك قصورا ؟

بوقار يجيبها :

— مازلت اجثو نحو ما اطمح .. فطموح كل انسان بقدر ذكائه ، وامكانيته فى الحياة .

شعرت بضآلتها :

— ولكن هناك من يطمح ويطمح .. ولا يحقق شيئاً .

يقول وقد استعاد وقاره :

— الطموح انواع .. فهناك انسان خلاق موهوب .. ولكن طموحه أدنى من قدرته .. وهناك آخر أحمق لايسع طموحه العالم ، دون أن يملك أى قدرات لتحقيق شيئاً .. وهناك الانسان الناجح الذى تتفق امكانياته وقدراته مع طموحه .

— وأنت أيهم ؟

— أنا مازلت فى بداية طريقى .

بحدة :

— ماذا تريد أن تكون بعد ما اذهلت العالم

بدراستك حول التحكم فى شكل الانسان .. ألم يكفك هذا النجاح ؟ أم هو الطمع الذى يتحلى به الانسان مازال يطلب المزيد ؟

ـ نجاحى فى تخليق هذا الكائن الذى ظللت اعمل من أجله طوال حياتى .

ـ تريد أن تصبح إلها ! هل تظن أنك قادر على خلق جناح بعوضة لتخلق كائناً ؟

بتركيز وثقه :

قلت تخايق ولم أقل خلق .. لأن الخلق ابتكار أما التخايق فهو تقليد ، ولكى أقوم بالتقليد او التشكيل لابد أن أتعمق فى نظام الكون .. لأعرف الكثير من الاسرار المذهلة التى تخفيها الكائنات فى خلاياها لأن الخلية هى أساس كل شىء .

وهكذا دائماً يصل بها فى حديثه للخاية والكروموسوم ، والجينات والقردة ..

نهضت من جلستها .. متمردة .. لقد بدأ الحديث بالسؤال عن السعادة والحب .. وانتهى

بالخلية .. لقد أصبح كل شيء فيه يضجرها لم تعد تطيقه .

* * *

بعد قضاء ليليتين متواصلتين .. شعرت بأنها ستألف هذه الحياة التى فرضت عليها دون أن تدرى .. اذ لابد من قبولها .. خاصة وانه يرق معها .. يقترب منها .. حتى عادت نظراتها تمتلئ بالمرح والسعادة من جديد .. لم يجد عناء فى ازالة « الطلاء القاتم » الذى غطى قلبها من جراء معاملته القاسية .. فاستطاع ترويضها .. حتى امست تقول له : ليتنا جئنا الى هنا من قبل .. فأنت هنا أرق وأعطف من ذى قبل .. كم احتاج من ايام وهو يخدر مشاعرها كفئرانه كان يهجرها ليعود اليها .. و عبثاً تظن أن وصاله هذه المره لن ينقطع .. وأن سعادتها معه ستطول وتدوم .. ولم تتغير عادته فى الاتيان بكل ما هو مثير .. تدخل غرفته .. فتراه جالسا .. يحاور

سنوسى باهتمام وحماس .. وبمجرد أن يلمحها .. يقطع الحديث .. كان بينهما اسرار لا يجب أن يطلع عليها أحد . تتظاهر بالامبالاة .. رغم عدائها المستمر لسنوسى صديقه .. لا تدرى لماذا تكرهه ؟ وتغار منه ؟ ربما لأنه يتآمر معه .. يشاركه تجربته .. يأخذ دورها .. حتى كاد يستغنى عنها .. حاولت ان تبحث لها عن دور ما فى حياته الجديدة دون جدوى ، ربما كان يخطط لذلك أيضاً .. فكل شىء يفعله لايصدر الا بعد دراسة وافية .. كان ينسج فكرته على مهل .. ويغزل خيوطه العنكبوتية حولها بمكر ودهاء .. حتى جاءت الصفعة الثانية .. كان سعيداً .. على غير عادته .. جلس بجوارها فى الشرفة ... سألته :

– ألم تر أن سنوسى أصبح يأخذ معظم وقتك ؟

الا ترين انك لا تفكرين الا فيه؟ انه مجرد أداة لا أكثر ولا أقل.

— وأنا !!!

— ماذا بك ؟

— أنا ما دورى فى حياتك ؟

— أنت شريكتى فى كل شىء ، وستقاسميننى نجاح هذه التجربة .

— ولكن لم أقم بأى دور فيها .. لقد أصبح بامكانك الاستغناء عنى .

رفرف قلبه من الفرحة .. وهاهى تأتيه طوع أمره .. دون قسر او قهر .. أو حتى مجرد اقناع .. فقال :

— بل سيكون لك أهم دور .. ووجد الفرصة ممهدة أمامه على بساط من الرضا العذب فقال :

— اننى قمت بأخذ السائل القردى واعددته تماماً للتلقيح بعد ان تأكدت من صلاحيته لاجراء التهجين مع الانسان ..

بخفوت رددت :

— انسان !

صمت وهو يتابع وقع المفاجأة عليها .. فأردفت تقول :

– ولكن هذا محال !! أتلقح قرداً بامرأة ؟

ونهضت من جلستها كهاربة من شيء ما يتعقبها .. وهربت الى غرفتها .. يكاد الفكر يمزقها .

* * *

تتساءل : أمن الممكن أن يضحى بى ، ويقامر بحياتى لمجرد اجراء تجربة ..! تجربة تحتمل الفشل ؟ مستحيل . تبتلع هواجسها .. ان كل شيء يقول انه يريدنى أنا .. كانت مشاعرى صادقة عندما أحسست أنه يضمر لى شيئاً ما .. شيئاً جعله غير هادئ .. لا ينام .. اجل هو يعلم جيداً .. ويخطط لذلك .. منذ تزوجنى .. ولكن ! مستحيل ان اصبح انبوبة اختبار .

فتح باب غرفتها فابتلعت هواجسها .. فقال وهو يمسك انبوبة رفيعه :

ـ ما الذى يخيفك يا اشجان .. إن التزاوج سيكون قاصراً على حقن هذا السائل .. ولن يقربك القرد .

اغمضت عينيها غير مصدقة ما تسمع .. وثارت الأمواج بين شاطئى عينيها ، فانهمرت دموعها بلا صوت .. فقال :

ـ ألست زوجتى .. شريكتى !!

اجابته بصوت تقطعه العبرات :

ـ زوجتك ..! قل دميتك التى لم تع انك تلهو بها ، لعبة قاسية مثل تلك .

قال محاولا اقناعها :

ـ فأنت اذن لاتحبيننى .. لأن المحب يضحى من أجل حبيبه .

بسخرية وهى تجفف دموعها بأناملها :

ـ الآن فقط عرفت ان هناك حباً ! وانه يوجد شيئاً اسمه التضحية ..؟ قل لى أنت من أجل من ضحيت ؟ وممن أحببت ؟

بثقة وتؤدة يجيب :

— من أجل العلم ضحيت بحياتى .. فأمسى وأصبح بين المراجع والمعمل والحيوانات .

— وأحببت من ؟

— أحببتك ....

قاطعته .. وقد امتلأت عيناها بالحسب القاتمة :

— كذاب .. مستحيل أن تكون احببتنى .. بل أحببت نفسك ، فانت على استعداد ان تضحى بكل شىء من أجل نفسك .. ورددت بصوت خافت ضعيف :

— نعم لقدحان الآن دورى .. لتحققنى ثم تشرحنى .. وأبتلعت دموعها وهى تجرى لتفتح باب غرفته .. فاذا بها تجد سنوسى جالساً على مقعده .. وكأنه يشغل مكانه .. فدارت بها الأرض وتمثل لها وحشاً ضارياً ، فتلاحقت صرخاتها .. وخرجت تبحث عن مكان آخر تلوذ به من شيطان العلم الذى يلاحقها بلا رحمة .

* * *

الفصل الثالث

لم يفكر ادهم فى تهدئة اشجان .. بل راح يخاطب صديقه سنوسى الجالس أمامه فوق مكتبه قائلا :

ـ أتعرف ؟ اننى واثق كل الثقة انها ستوافق وستلين .. ولكن يبدو أن الفكرة اخافتها .. فلها المعذرة فى ذلك .. ولكننى متفائل بك .. هيا ناولنى الآلة الكاتبة .. نهض القرد ـ سنوسى ـ بسرعة وحمل الآله الكاتبه وأخذ ينظفها من التراب الذى يغطيها .. ثم وضع الورقة ببراعة وفن ، وجلس أمامه ينظر اليه .. استمر ادهم فى حديثه وهو يتأمله : آه لو حدث ما أنشده ! تصور الآن لو أنك تفكر .. كنت ستكتب بدلا منى .. وربما تضيف وتحذف .. وقد

تبدع أيضا .. وبابتسامة مليئة بالغرور .. ولم لا يتحقق كل ذلك ؟! وظل يخاطب القرد .. يردد كلمات وتعبيرات لا يفهمها .. كل شيء مبهم أمامه .

— سيكون لك حفيداً أجمل منك ، أرقى منك وساصنع منه سلالة كاملة ليرث الغابة ومن عليها .. وأخذت أصابعه تضرب على الحروف بقسوة وسرعة مدوناً الخطوات التى سيجريها . يؤرخها بعد ان استطاع ، ان يستخلص اكبر كمية ممكنة من السائل القردى ، وجهزه للتلقيح .. فقد استغرق وقتاً طويلاً .. وهو يضعه فى محاليل كيماوية ومواد معقدة وأنواع من الأشعة ، حتى تأكد من صلاحيته فى اتمام عملية التزواج وتبادل وعبور الجينات بين النوعين الانسان والقرد .

* * *

تساءلت اشجان وهى تتجافى فى مضجعها :

— كيف سولت له نفسه بإتيان هذه الفكرة ؟

وماذا يرمى من جراء حديثه معى ؟ هل يستطيع أن يطلب منى هذه الرغبة ، الشاذة ؟ كان واضحاً أنه يعلم أنى لن أرد له أمراً ، ولكن هل من الممكن أن آتى أنا هذا الفعل ؟ يرفض عقلها : مستحيل . تفكر .. ظننت ان العظماء عظماء فى حياتهم .. ولكن يبدو اننى كنت غرة بلهاء .. فلم اكتشف الدور الذى اختاره لى فى تلك المسرحية المفزعة .. تلوم نفسها .. كان لابد أن أفطن لذلك .. خاصة بعد نجاح التجربة على الفئران والأرانب .. تتذكر : انه لم يتغير الا من أجل تنفيذ هذه الرغبة .. هل اطاوعه ؟ تماوءها الحيرة وتكثر من حولها علامات الاستفهام .. تغمض عينيها هامسة .. تتمنى حيث لا يجدى التمنى .. ربما اعانى من رؤية كابوس مفزع .. وسأصحو منه لأكتشف أن حياتى معه لم تكن .. واننى مازلت بين أهلى أحلم بزوج عظيم .. رجل جاد لا يلهو لا يعبث بالآخرين .. اغمضت أهدابها .. وعبثاً تحاول النوم ،

لتصحو وقد تعرى سباتها .. تراه على حقيقته .. بعد أن أطلعها وأسفر عن رغبته الآثمة .. وضعت يدها على جبينها المغضن ، كأنما تفتش فى طياته عن بعض الذكريات القديمة لتستجمع ما تفرق من أشلائها .. وأصبحت فى طور آخر من اطوار الموت .. تتجنبه لا تلاحقه فى كل شيء كعادتها المجنونة .. واكثرت من جلستها مع الحيوانات ، ألفت هؤلاء الذين تركوا الغدر والاستغلال للانسان .. تأتى بجوار الرئبال توجه له سؤالا وهى تضع له اللحوم .. وكأنه يفهم ما تقول :

— هل أتى عليك يوماً دبرت فيه لأخيك مؤامرة .. أو أوقعت به فى ورطة ؟ قل لى يا غضنفر .. يا ملك الغابة هل أتى عليك يوماً وقتلت فيه أسداً مثلك ؟ تجيب : ولكنه الانسان هو فقط الذى يستبيح ذلك .. فلا يحارب الا أخاه .. يفتك به ويستحل دماه ، يدبر ويخطط لقتله .. وما أحقر قدره وأجل شأنك .. وتومئ

برأسها وكأنها تقف أمام احدى آلهة الاغريق .. وتقول :

ــ اننى أحيّ فيك هذا الخلق الكريم .. وارحب بصداقتك . استمرت على ذلك الحال مدة طويلة .. تخاطبهم وتأنس بهم حتى ألفها الحيوانات لما تغدقه عليهم من رعاية دونها رعاية الأم بأحفادها وخشى عليها ادهم من تلك الحالة المضطربة التى كادت تصل لحد الهوس .. كانت هناك بعض الحيوانات التى لا حاجة لها لاقفاص ، يتركها سارحة .. بارحة فى الغابة .. وما اشدهم فرحة بقدوم أشجان بمجرد ان يلمحونها تمرق امامهم .. يلتفون حولها فى دائرة ، تتقدمهم كعروس يزفها الأهل والأقارب .

ولجت بأدهم الوساوس والهموم .. بعد أن شعر بعدم استجابتها لفكرته .. ولكن خوفه عليها من الحزن جعله يلاحقها يتوسل اليها ، وكل يوم يمر يأتى لها بأسباب مقنعة وحجج

قوية لتستجيب .. حتى فاجأها بقوله وهى ترتدى معطفها وتمسك بالعصا التى تروض بها الحيوانات :

ـ لقد جهزت المحلول ولابد من اجراء التلقيح .

اطرقت بالعصا على كفها وهى تقول دون ان تنظر اليه :

ـ واذا رفضت قبول ذلك ؟

اقترب منها .. وهو يوجه رأسها بكفه اليه قائلا :

ـ مستحيل اصدق أنك ترفضين لى مسألة .

تظاهرت بالقوة والتماسك .... وهى تحجب نظراتها عنه قائلة :

ـ ما وجه الاستحالة فى ذلك أليس من حقى الرفض ؟

همس بعطف :

ـ أتعصيننى ؟

بخفوت تجيبه :

ـ كلا .. ولكن صوتاً فى الضمير نهانى .

ـ أى ضمير يحول بينى وبينك ؟ أكل هؤلاء المخترعين ليس عندهم ضميراً .. أنالا أقترف اثماً حتى يقف ضميرك لى بالمرصاد ، لست أول من سخر الانسان فى تجاربه العلمية

وراح صوته يشتد ويقوى وهو يقول :

ـ ان عباس بن فرناس .. أول من فكر فى ابتكار الطائرة ، لم يتردد لحظة واحدة فى تركيب جناحين .. لينفذ ويطبق فكرته ورغم توقعه الفشل الا انه فعل ذلك بكل الرضا .. ولم يعاقبه أحد على ذلك .. بل لم يدنه أحد .. وأصبح ضحية ابتكار الطائرة ، ان شجاعته هى التى جعلته يضحى بنفسه من أجل العلم .

تقول بعد أن وقعت كلماته على قلبها برداً وسلاماً :

ـ ولكنك تضحى بى ....

لاحقها بقوله :

ـ اؤكد لك أننى لو كنت امرأة لأخصبت

نفسى بهذا السائل بلا تردد او خوف .. ثم أردف يقول :

ــ ليست هناك أية خطورة عليك .. والكائن اذا جاء غير طبيعى حتماً سيموت .. لأن من رحمة الخالق أن يموت قبل البلوغ كل من يأتى غير طبيعى او مشوهاً وغريباً . وراح يعدد لها جميع احتمالات الحمل الممكنة .. وهو يعلم جيداً خطأ افتراءاته وادعاءته .. وان هناك احتمالاً واحداً لم يضعه فى الاعتبار .. ولم يقم له وزناً .. وهو ، التوقع العكسى لما يرغب .

أمتقع لونها .. ولم تجب فقال على أثر صمتها :

ــ أرجوك يا اشجان قدرى خطورة التجربة .. لا يوجد من أثق بها غيرك لتؤدى هذا الدور الهائل .. فأنت خير من تقدر الجهد والمشقة التى بذلناها حتى وصلنا لهذه النتائج .. هل أهون عليك ؟

لاتجيب .. فيستمر فى حديثه :

— لا أعرف سر جهامتك ... ولا أفهم ما يضيرك فى قبول ذلك ؟ اذ كيف اؤكد لك أنه ليس هناك أيه خطورة عليك .. ستكونين مجرد وعاء لحمل هذا الجنين .. لمدة لن تزيد عن سبعة أشهر وربما أقل ولن يسوءك شيئاً . وابتسم وهو يضيف :

— فما طرأ على الكروموسومات وقمت بتغيره يؤكد لى أنك لن تنجبين سوى كائناً يحمل بعض الصفات الانسانية .. كائناً يفوق كل هذه الحيوانات ، اننى لا أفعل ذلك الا لمجرد الرقى بهم .. ولنمنحها كائناً يسودهم ليعبر عن رغباتهم .

تخرج كلماتها مركزة ، عنيفة ، فى جمله ألقتها فى وجهه، لتحرك فيه الرحمة .. فتقول :

— أتسخر الانسان لترقى بالحيوان ؟

زادته جملتها ثقة بأنها ستقبل وسيحقق ما يريد .. لقد بدأت تناقش وتلين .. فأجابها بهدوء :

ـــ وما الخطأ فى ذلك ؟ أنا لن أضر الانسان !
ـــ بل تخسف بشأنه .. وتهبط به درجه .
ـــ لأرتفع بالحيوانات .. فى سلم التطور .. مرحلة مفقودة بين الانسان والحيوان لابد من العثور عليها .

وقطع الحوار برقة وهو يقول :

ـــ أرجوك يا اشجان لا تفقدينى حماسى بفتورك هذا .. واقبلى على التجربة بقلب جسور كما عاهدتك من قبل .. وكونى شغوفة مثلى برؤية هذا الكائن الذى سينسب وجوده اليك ، هل تتخلين عنى وقت الحاجة ؟

تساءلت بكتمان : وما عساى ان ارفض بعد كل ما قبلته فى سبيلك ! لقد تركت الحياة لأسكن غابتك .. فما المانع فى التناسل مع الحيوانات وقد شربت وأكلت ولعبت معهم .. وقالت بصوتها الرخيم :

ـــ ولم لا ؟!

ضمها الى قلبه فى قبلة طويلة اشعرتها بأنه

يذوب نشوة برضاها ولم تحرك حرارته فيها ساكناً ، لقد ايقنت انه لا يحبها .. ولم يتزوجها الا لتحقيق تلك الرغبة الشاذة .. تتساءل بصمت : تسعة أعوام ولم يكشف بعد عن هويته .. يا لصبره ! يملؤها اليأس .. اذ كيف لا يغمرها الحزن وهى تجد نفسها لا تزيد على كونها فأرة تجارب . بأى طريقة نبتت هذه الفكرة الشيطانية ! وبماء أى خاطر متقد سقيت ؟ ان اريجها يكاد يغميها .. فلا تفيق من هذا السبات . كانت تغبط الحيوانات لجهلها .. اما هى فانها تمتلك أخطر ما فى الانسان ــ العقل ــ آفة الانسان هو العقل .. خاصة عندما يعرف مصيره وحقيقة الدنيا .

* * *

يراها تهن وتضعف .. تشحب وتذبل .. رغبتها فى الحياة كادت تنعدم .. راقدة طوال يومها على الفراش . ليست نائمة ولا مستيقظة ،

حالتها تريبه .. وتقلقه .. خاصة وان موعد التلقيح يتوقف عليها وحدها فهى وحدها التى تعلم جيداً متى يجب اخصابها .. اتراها ستكذب عليه ؟ مؤكد انها لن تلجأ للافتعال والكذب .. لأنه حتماً سيكتشف ذلك من خلال شاشة التليفزيون التى تظهر كل شيء بوضوح ، ستعطيه الاشارة الصحيحة .. والوقت الملائم لإخصاب البويضة .. ومن يوم اعداد السائل وهو لا يبرح غرفة المعمل .. وصديقه سنوسى بجواره ، يشد ازره ..

وحان ميقات الجريمة !

فتح باب غرفتها .. فأصدر حركة الباب صوتاً .. أيقظها من غفلتها .. من شرودها .. كانت شبه ميتة .. راقدة بلا حركة وقد سكن جسدها على الفراش .. تحركت عيونها الزجاجية نحو الباب .. واستحال ادهم أمامها لشبح مخيف .. افزعتها رؤيته .. وعبثاً حاولت كظم غيظها ولكن أسفرت نظراتها عن الرعب والخوف

اللذين كان يملآنها . وكلما اقترب ادهم منها ازدادت دقات قلبها اضطراباً وتلاحقت أنفاسها .. عندما رأت حقنة المخدر بين أصابعه .. كان وجهه يعبر عن الرضا .. رضا الجلاد الذى لم يزده انين ضحيته الا نشوة وفرحة .. كانت تتلقى لمسات أدهم وهو يقترب من ذراعيها وكأنها تتلقى أتونا مستعراً .. أغمضت عينيها ، مستسلمة لهذا الخدر الذى راح يسرى فى أوصالها ؟ شعرت بأن وعيها يعيب وتمنت أن تكون هى غيبة الموت والرحيل .. وبدا لها ادهم فى صورة نجتيفية .. ثم أستحال شبحا حتى تلاشى شبحه واختفى وراحت فى سبات عميق ... نادى ادهم على سنوسى بعد أن تأكد تماماً من تخديرها .. ناوله أنبوبة اللقاح المجهزة .. وبدأ ادهم إجراء عملية التلقيح والاخصاب ببراعة ومهارة باحث مدرب .. وكأنه يقوم بعملية اخصاب لنبات او فأر .. لا فرق بينهما .. فكم

عدد التهجينات التى أجراها فى حياته ؟ لا حصر لها .. من كل الانواع وبين شتى الفصائل .. بل على العكس من ذلك فكلها تجارب ناجحة ، مريحة لأن الحيوانات لم تعذبه مثل اشجان التى ستريه ما لم يره فى حياته من قبل .. حتى تلد الكائن الجديد .

يشاهد سنوسى ما يفعله بجسدها .. يعبث بها ، ويحاول تقليده .. فيمد أصابعه .. ينهره ادهم بعنف .. فيجرى من أمامه .. وبعد أن انتهى ادهم من تلك العملية .. اخرج أصابعه من القفاز .. وشد الغطاء على اشجان .. وسار مزهوا يتبعه خادمه — سنوسى — يقول له :

— ستصحو من غفلتها بعد ساعتين ..

ثم تنهد قائلا :

— آه .. كم كنت أود لو تطول غفلتها .. فلا تصحو إلا بعد الوضع ، لأراحتنى كثيرا ،

فكما ترى كم هى متعبة .. هيا بنا نعد فنجانا من الشاى .

اعطى ادهم قرونا من الفول السودانى لسنوسى ، الذى راح يخبطها بكفه على طاولة المطبخ ثم يفتحها باصابعه ويقذف بحبات الفول الى فمه ، وبينما يملأ ادهم براد الشاى بالماء .. تحرك سنوسى فى غرفة المطبخ .. حركات عنيفة ، فاصطدمت بعض الاشياء ببعضها .. وسقطت ، اكواب زجاجية على الارض .. فأمسك ادهم يد سنوسى يعنفه بقوله :

— كم عدد المرات التى انذرتك فيها بالا تفعل شيئاً الا بإذنى ؟ الا تفهم ، نكس سنوسى رأسه بحزن .. وبرقت عيناه بالندم .. فإبتسم ادهم وهو يشد له مقعداً ويقول :

— نعم انك لا تفهم .. ولكنه سيفهم .. ولن يفعل أفعالك تلك ، العشوائية .. وأمسك رأسه بين كفيه .. بعد أن اجلسه على المقعد وهو يحدق فيه طويلاً قائلاً :

ـ هذه الرأس لابد وان تفكر وتتعلم وتبدع .. وتلك هي مهمتي .

* * *

جلس ادهم بجوارها على طرف الفراش .. يرقبها وهو يشرب الشاى بهدوء .. وراح يعد العدة لمواجهة الثورة التى ستندلع بمجرد استيقاظها .. فهو يعلم جيداً أن حالتها كانت تزداد سوءا بمرور الوقت .. خاصة بعد المظاهرات العاطفية التى اشتدت بداخلها .. وزادت نوبات صراعها .. لم يقطع سكون البيت سوى ثلاثة أصوات راحت تدوى فى اذنه .. تدور عقارب الساعة وتدق الواحدة ليلاً .. ويدق قلبها يرتفع صدرها ويهبط .. تضطرب نبضاتها وتتلاحق انفاسها .. فيضطرب ادهم بدوره .. لأول مرة تلتقى نبضاتها .. وعبثاً تحاول اخفاء انفعالاتها .. ترتجف أوصالها وهى تبتلع دموعها التى سالت على وجهها كسيول تأتى على كل شيء تجده

فى طريقها ، وارتفع انينها بمجرد صحوها من الغفلة .. وضع أدهم كفة على رأسها .. ومرر أصابعه على شعرها الأسود الذى تبعثرت خصلاته على الوسادة .. قال وهو يحنو عليها :

ـ لا تخافى يا حبيبتى .. فاننى بجوارك .. ولن اتركك لحظة . ارتفع بكاؤها بحدة .. وهى تحاول أن تنحى أصابعه عن رأسها بقوة . فقال بتسامح محاولا ترويضها :

ـ ألهذا الحد تكرهين رؤيتى ؟

تنافرت اهدابها .. وبدت عيون القطة تبرق وتلمع بنظرة مخيفة تود لو تستطيع أن تنشب مخالبها وأظفارها فى رأسه ، ما أبشع هذه النظرة .. شعر ادهم بأنه يتحول لقزم صغير أمام عينيها التى تدينه ، وتجرده من خصائص الانسانية .

* * *

وقارن ادهم بين تلك النظرة المخيفة .. ونظرتها السابقة التى كانت مليئة بالسعادة ..

نظرة جارحة .. كان يحس وهو يسبح فى عينيها كأنه يقف بشاطئ المحيط .. متاهتان لهما سحر البحر وغموضه بابعاده الصافية التى تبعث الامان والراحة فى النفس .. ولكن ما بالها تتحول لصحراء قاحلة .. تسلبه الراحة والامان ..؟

والقت فى وجهه جملة حادة .. قاسية .. ولكنها كانت اكثر رقة مما يتوقع .. فقالت وهى تتمنى لو طالت رقدتها للابد علها لا تراه قبالتها :

— أرجوك دعنى وحدى .. اريد أن أنام .

ولم يبتعد الا قليلا حتى شعرت بوخزة فى قلبها .. فلم تبل بها ، ثم تتابعت الوخزات حتى خيل إليها أن قلبها يرفرف من بين اضلاعها .. رفرفة الطائر المذبوح مخضباً بدمائه .

تركها وخرج منكس الوجه .. فهو يطمع فى ترويضها .. لنجاح الاخصاب .

دخل غرفته .. فوجد سنوسى قابعاً بجوار المدفأة .. يحل مسأله كان قد سبق تدريبه

عليها .. يمسك بقطع البلاستيك الملونة ذات الاشكال المكعبة .. ليرصها فى اماكنها على اللوحة المخططة .. اقترب منه يجلس القرفصاء .. وهمس فى اذنه :

ـ هانت .. لم يبق الا شهوراً ويأتى سيدك .. وسيد الغابة الذى سيعبر عما تريد وعما ترفض .. وقطعاً سيحل هذه المسألة دون مشقة او جهد .. وسيعلمك الأشياء كلها .... امسك يده ليصافحه وهو يردد :

ـ الآن يجب تهنئتى .. وقد قطعنا المرحلة الهامة فى التجربة ، فأنا متفائل بك .. ووقف الاثنان .. فاردف يقول وهو يتحسسه :

ـ سيكون فى كامل هيئتك تلك .. ربما اقصر قليلا .. او أطول بعض الشىء .. ولكن التحسينات التى أدخلتها على الكروموسوم ستجعله اجمل منك ، وفتح علبة سجائره .. واخرج سيجارتين .. اشعلهما .. وألتفت اليه .. ووضع احداهما فى فمه والاخرى بين فكيه .. وقال :

ـ وسيدخن مثلى هكذا !

وراح ينفث الدخان .. وحاول سنوسى تقليده .. ففشل .. وأخذ يقرض السيجارة بفكيه .. فلسعته .. وضحك ادهم .. وارتفعت ضحكاته الصاخبة .. فابتسم سنوسى وبدت اسنانه المنتظمة وفكاه العريضان كأنه يفهم سر ضحكه، وجلس ادهم على مقعد المكتب يشعل سيجارة تلو اخرى .. وأخذ يفكر فى الطريقة التى يجب اتباعها لترويض اشجان .. خاصة وان نظراتها تنبيء بتمردها الذى يكاد يقضى على الجنين المنتظر .. وتساءل بصمت : كيف يحمى الكائن الجديد من الموت ؟ وكيف يستعيد ثقتها ويجعلها تستمرئ هذه التضحية؟ لابد من اعطائها قدراً هائلاً من السعادة ، على الأقل فى هذه الآونة الخطيرة ... ونسى أن السعادة لا تحتاج لتدبير وتخطيط ومؤامرة .. فحتى السعادة لديه كان بحاجة لخطة محكمة .. لبداية ونهاية .. أتراه سينجح ؟! تنكمش جفونه .. يركز بصره

على صديقه ويقول بصوت مسموع :

ـ المسألة لا تحتمل الفشل .. فلا بد من نجاحي في ارضائها . وتحمل كل ما تأتي به من ضجر .. وتمرد .. وسخرية .. وسيهون كل ذلك .... من أجله .

* * *

الفصل الرابع

كان سنوسى يتابع حلقات الدخان التى تنبعث من السجائر المشتعلة ويمد أصابعه محاولا دون جدوى اللحاق بها .. يضحك أدهم قائلا :

ــ ماذا تفعل ألا تفكر ؟

لا يعيره اهتمام .. وظل يقطع حلقات الدخان بيديه بعنف ، اجهدته محاولة الإمساك بالدخان .. ويبدو انه بدأ يضيق .. فقال ادهم :

ــ لأنك غبى .. لاتفكر .. تظن انك ستلمس هذا الدخان ، وتمسكه بيديك .. ولكن هو .. سيدرك استحالة ذلك .

وظل سنوسى يتابع سحب الدخان تارة بيديه .. واخرى بفمه ، وادهم يفكر .. ان هذا

القلق القاتل .. وتلك الحيرة المخيفة ستستمر لمدة سبعة أشهر متواصلة .. حتى يأتى سيد الغابة ومروضها .

تمشى اشجان مشية الطائر المذبوح الذى يجر شلوه جراً ، وكانما انطفأ فى قلبها ذلك المصباح المنير الذى كان يمد حواسه ، ومشاعره بالنور والاشراق .. فأصبحت ذاهلة مذهوبة بها ، يحدثها فلا تكاد تفهم الحديث .. ولا تكاد ترد عليه أن فهمته ، حتى حركاتها أصبحت منكسرة .. كلما جلست تبدو وكأنها ساقطة تحت اعباء ذلك الحزن الثقيل تئن انين الدفين تحت انقاض البيت الساقط .. ترى نفسها غريبة ، منقطة .. لا أهل لها ولا رحم .. تظل سائرة طوال يومها بين الحيوانات مطرقة الرأس ، واجمة .. وكان ثغاء الحيوانات وعجيجها .. وصفير الرياح الساقيات من حولها .. وطنين البعوض الحائم عليها بمثابة مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة .. فاذا اقبل الليل عجزت

يده الباردة أن تخفف شيئاً من ذلك الأتون المستعر داخلها .

يرقد بجوارها كل ليلة .. تسمع أصوات الحيوانات فتفزع من نومها .. ولكنه ينام كأنه يستمع لنغمات الحور فى فراديس الجنان . عاشرت الوحوش الضارية والذئاب المفترسة ، والنمور الكاسرة والقردة الشرسة وخبرت أخبارها وطباعها ومنازعها ، ومشاربها .. فرأت أنها لا تفترس ، الا اذا جاعت ، ولا تشرس الا اذا اهيجت .. ولا تطمع فى اكثر من كفاف عيشها .. وغلالة حياتها .. وتمثل لها ادهم اضرى واشرس ، ومخدوع فى تفضيل نفسه عليها .. واستحالت صورة ادهم امامها لصورة وحش ضار .. لا يقوم له شيء الا أتى عليه ودمره وفتك به .

شعرت أنها شريكته فى الجريمة .. التى اقترف فيها اكبر الرذائل والمثالب .. ولكن هل لها أن تنجو بنفسها من شرور دوره الخبيث ؟

ظلت تهرب منه .. بين الحيوانات .. حتى
ألفت الغابة .. فألفت ماءها .. وهواءها ، وظلالها
وفياءها .. وخضراءها ، وغبراءها .. وبدا ادهم
غريباً .. غير مألوف .. فهل نجح فى تحويلها
لحيوان تجارب ..؟ ربما ! واصبحت اشجان
شغله الشاغل .. فهى تحمل مخلوقاً سيخرق
نواميس الكون .. معجزة من صنعه .. اسطورة
من عجائب العلم .. كان يقوم كل فترة بفحص
الجنين من خلال الشاشة التليفزيونية ، وهى
مستسلمة لقدرها ، كسجين ينفذ الحكم ، ليس من
حقه الاعتراض . أصبح ديدبان عليها ، لا يفارقها
لحظة .. رغم ابتعادها الدائم عنه ، فاذا تقلبت
فى مضجعها فزع ولاحقها بتفسير حالتها ،
واذا وضعت يدها على جبينها اضطرب متوجساً
من خشية المرض وما يعقبه .. يخشى عليها من
كل ما يحيطها .. ولم تزدها تلك الرعاية المفاجئة
الا ضجراً وخوفاً .. فحسبها فى ذلك انها لا
تقل أهمية عن سنوسى ، فكلاهما أتى الى

هنا بخطة محكمة .. ودوراً مرسوماً بعناية ..
وايس عليهما جناح فى تنفيذ ما خط لهما . .
وكلما شعر بضجرها وتبرمها من متابعته .. راح
يخفف من وطأة هذا العبء الذى تشعر به ..
ليراقبها عن بعد .. وتحولت لحيوان أعجم ..
ليس بوسعه أن يدفع عن نفسه الأذى .. فلا
تأنس الا وسط الحيوانات .. هاربة منه طوال
فترة الحمل تغدق عطفها وحنانها على كائنات
الغابة المختلفة .. وشعر انه فقدها للأبد .. فلم
تعد امرأته ، حسبها من العيش ارضاؤه .. لترى
ماذا سيفعل بها بعد ان تؤدى دورها .. وتنجب
له المخلوق العجيب ؟ هل سيلفظها بعد أن
توضع؟ ام ماذا سيكون مصورها فى معمل حياته؟
أما لهذه اللعبة من نهاية ؟ لقد استمرأ لعبة العلم ،
اللعبة المدمرة التى لا تقيم وزنا للعقائد والمبادئ
السامية ، الطموح الذى – يدوس – بقدميه كل
شىء من أجل الوصول .

تهبط الى الحيوانات .. يأتون اليها فرادى ..

يلتفون حولها فى استقبال حافل برىء .. وتترقرق الدموع فى عينيها وهى تتقدمهم فى موكب بديع .. موكب يشعرها أن الدنيا مازالت بخير وانه رغم حياتها .. مازالت هناك قلوب تعرف الرحمة والوفاء والحب .. تسير سيرة المهزوم بين صغارها .. وتتساءل وهى تفترش العشب لتجلس بينهم فى حديقة الغابة .. ها أنا أستولى على كل تفكيره .. ولكن ما فائدة ذلك ؟ فكم تمنيت ان يعتنى بى عنايته بحيواناته .. حتى بت أهم وأكبر فأرة فى معمله .

وكان عقلها أدنى من ان يحتمل وحده تلك الحقيقة .. فتتساءل بجنون :

— أألقح بسائل قردى .. ليرقد بين اضلعى مخلوقاً غريباً ؟ تشعر بأحشائها تضطرب تتقلص فتضع كفها على خصرها ، خائفة ، مذعورة .. وعبثاً تتجاهل صورة هذا الكائن .. تبعدها عن مخيلتها .. وتصعد جريا لأعلى الفيلا .. تقف فى أعلى مكان فيها ، تتأمل هذه الجزيرة النائية

التى تضم أكبر معمل من الممكن ان يوجد فوق الارض .. حيوانات مألوفة .. وغير مألوفة .. ربما تراها لأول مرة .. ولكنك سرعان ما تألفها لحسن تربيتها .. فهو استطاع ان يروضها جميعاً .. ولم يحدث لها شيئاً غريباً أثناء الحمل ، بل كانت كلها أشياء عادية .. كما حسبها وتوقعها .. وكلما اقترب موعد الوضع .. اصفر وجهها خوفاً وألماً .. فهى أم تشعر بقيمة ما تحمله بين اضلعها .. وبأنه ملكها .. اذ كيف تنجبه وتقدمه له عن طيب خاطر ليعبث به كيفما يشاء؟ تتقاب فى مضجعها ، بقيت أيام كما قال لها .. وكما أسفرت التحاليل من نتائج ، وظهر الجنين فى شاشة التليفزيون .

* * *

السعادة تغمره وكأن العالم لم يسعه .. تجلس أمامه ، فى ردهة البيت .. تزعم انها تشاهد التليفزيون .. ولكنها شاردة ، ساهمة ، تحملق

فى لا شىء خائفة .. يقترب منها ملقياً بأوراقه البحثية التى لاتفارقه ليلا و نهارا .. يسألها :

— فيم تفكرين ؟

تحركت البحيرتان الخضراوان باشعتهما الحادة وأطبقت شاطئيها وهى تضم شفتيها بحنق قائلة :

— وما شأنك بذلك ؟

قال متجاهلا ما فعله بها .. والمصير المجهول الذى ينتظر مولودها :

— كيف تحدثيننى بهذه الطريقة العدوانية .. ان طريقة حياتك تزعجنى ، تغبننى حقى ، تشعرنى بالاثم .. ماذا فعلت ؟ بل ما الذى اقترفته لأنال منك كل هذا العقاب ؟ ثم أردف يلومها :

— ظننتك ستساعدينى .. فالنجاح الذى انتظره لن أجنى ثماره وحدى .. ألن ينالك منه نصيباً ؟ ألسنا سنقتسمه سوياً ؟ الزواج شركة .. فى كل شىء .. فى العمل .. فى البيت .. فى الانجاب .. وشركة مخلوقنا الجديد ساهمت فيه بعقلى وأنت بجسدك ، فلماذا تضمرين لى

كل هذا العداء ؟ ان حالتك تقلقنى .. ظننتك لن تعوقين مستقبلى بل ستدعمينه .. وراح يردد بغرور :

— لأنك عندما تقولين أنا زوجة ادهم . صاحب أخطر براءة اختراع فى تاريخ العلم .. اعتقد أن من واجبك أن تفعلين شيئاً ما .. لأنك ستثمرين نتيجة هذا الفكر والجهد والكد .. كنت آراك تقدرين فما بالك الآن تتحولين ؟

قاطعته وهى تسأله بفتور :

— هل لو كنت تزوجت امرأة غيرى كانت ستتمبل هذه المقامرة الخاسرة ؟

تنهد تنهيدة قوية .. زفر فيها كل قدرته على احتمالها ، بعد ان سئم تلك النغمة التى راحت تعزفها كل حين بمناسبة ، وبدون مناسبة .. والقى احجاره السميكة فى وجهها وهو يقول :

— لو كانت أخرى ليست فى مثل عقلك وفكرك ما تزوجتها قط ، لأننى اخترتك انت على وجه التحديد، رغبة فى مشاركتى خاصة عندما

عرفت انك لست كالاخريات فأنت امرأة كما قيل لى تقدر حياة العظماء .

واشتد انفعاله وهو يستدير حولها :

ـ ولكن يبدو انني اخطأت .

تنكمش اشجان بذعر .. وهى تراه يشتد .. فتابعته ، رغما عنها ، فمضى يقول :

ـ انك لا تستطيعين ان تكفى عن الجدال ، وأنا عقلى لا يحتمل تلك المهاترات .. لابد من الهدوء حتى يتسنى لى التفكير .. ثم انخفض صوته وهدأ انفعاله وهو يردد بيأس :

ـ ما شعرت قط بالتوتر والاضطراب فى حياتى قدر ما شعرت الآن . وارتفع صوته بغتة .. فانتفضت اشجان من جلستها ، وهو يمد يده فى وجهها ، يحذرها بقوله :

ـ لقد نفد صبرى ولم اعد قادراً على احتمالك .. وراح يقلدها بطريقة مستنكرة .. مردداً :

ـ لن اسمح لك بترديد هذه الكلمات

السخيفة .. المقامرة الخاسرة ! شيطانك العلمى ، لعبتك الساخرة ، دميتك ، اقوال لا تلفظها سوى حمقاء جاهلة ، لا تقدر ما يفعله عالم مثلى .. وقرب وجهه من وجهها ، واستدارت عيناه .. وانتفخت اوداجه وهو يقول بصوت جهورى :

ـ فأنا لست مجرماً يا هانم .. ويجب أن تعلمين جيداً أنك متزوجة من اكبر عالم .. واذا كنت تتجاهلين تلك الحقيقة .. فأنا اذكّرك بها .

وضغط على كلماته وهو يقول :

ـ لأول وآخر مرة اذكرك بها .

وابتعد عنها وهو يردد وكأنه قد اصدر حكمه النهائى فى قضية حياتها :

ـ لن اسمح لمخلوق على وجه الأرض أن يقف فى طريقى ، وأعرفك بأننى لن أجد مشقة فى العثور على امرأة ، تحمل هذا الكائن ، وكل ما فى الأمر أن نتيجة التجربة قد تتأخر

قليلاً ، فعليك اكمال الدور بتقبل ورضا ، او رفضه بأدب واحترام ، وتخرجين من حياتى .

جاءتها كلماته كعاصفة تؤجج الجمر النائم فى كيانها ، حادة ، كضربات السيف ، كان بارعاً فى توجيه ضرباته ، فلم يجد مقتلا الا وأصابها فيه ، سألته .. غير مصدقة ما سمعت :

— أحقاً ما سمعت .. بعد كل ما فعلته من أجلك ؟

وتساقط سؤالها حرفاً .. حرفاً .. حتى أصبح شجنا وارتطاما ، وتحول لأصداء شبيهة بخطوات غريبة فى سكون الليل .

* * *

تحاكى مرآتها :

— ما الذى أتى بى الى هذا المكان المهجور .. وسط الصخور والحيوانات ؟ عقلى الساذج .. الغر ..؟ أم عقله الذكى الدهى ..؟ تمسك فرشاة الشعر ، تفلت من بين أناملها بإهمال ،

وتعكس المرآه صورة مومياء متحركة .. تمتد اناملها لتعبث فيما تبقى من شعرها الذهبى .. تتساءل : شعرى الجميل .. الذى كان يبهر الجميع .. جف وأخذ فى التساقط .. عيناى الساحرتان اصبحتا مجوفتان ولم يعد لهما بريقهما الأنثوى ! جسدى ماله ترهل ونحف .. وتلمس اناملها الموقع البارز من جسدها .. الذى يطوى بداخله الكائن المجهول .. وتتساءل : ماذا أصابنى ؟ بل ماذا دهانى ؟ لقد أصبحت كالشمعة التى تحتضر .. وكل مهمتها ان تنير الطريق لأحمق ، تقضى على شطر من حياتها ليعلو صرحه !

لم الملل الآن ؟ لقد أحبت وأعطت ولاتزال تدفع ضريبة هذا الحب .. وأصبحت اشجان تقضى معظم اوقاتها تحاور نفسها حتى أصبحت تجيد هذا الحوار .. من اللوم والسأم والعتاب ، ولم تجد معنى لرفضها او قبولها الحياة مع ادهم .. فكل شىء تساوى لديها .

ثم ماذا تريد من الحياة بعد كل ذلك الخداع ؟
حسبها أن تقضى ما تبقى لها من العمر وسط هذه الكائنات ، فلم يعد بها القدرة على مواجهة الآخرين الذين حاربتهم، أو مواجهة ادهم الذى دافعت عنه .. وعليها اكمال الدور حتى تسدل الستار وتنهى حياتها ، واعتصمت فى غرفتها .. تلوذ بالصمت الذى أصبح من سماتها الواضحة .. وفرح أدهم بخضوعها للأمر .. وأصر على مصاحبتها سنوسى فى كل شىء لتدريبه على خدمة الحيوانات .

كانت تكره سنوسى ولكن لم يعد هناك فرقاً فى حياتها بين الحب والكراهية .. فألفته هو الآخر .. كما ألفت الآخرين ، حتى أصبحا رفيقين .. يفهمها ويناولها الأشياء كلها .. كان خادماً للغابة بأكملها .

وتوالت الشهور العصيبة .. تتألم ... فتضع كفها على خصرها الممتلىء اوقفها ادهم .. وأسند رأسها على كتفه وساعدها على التحرك ، ونقلها الى الفراش .. تسأله وهى ترتجف :

ـ هل سأضع هنا وحدى دون أهلى ؟

صمت قليلاً وهو يسوى فراشها وادار وجهه .. انها تعلم جيداً مدى خطورة البحث وسريته .. فقال على اثر دمعة ترقرقت فى عينيها :

ـ بالطبع كلا ، وسنرحل الى اسرتك ،

انتفضت فرحة من رقدتها .. متعلقة بعنقه تقبله فقال :

ـ بشرط ان ......

قاطعته بحماس وهى تقول كغريق يتعلق بقشة سابحة :

موافقة .

ابتسم نصف ابتسامة وهو يسألها :

ـ قبل أن تعلمى ما هو المطاوب ؟

عادت لرقدتها المستوية ، وهدأت أنفاسها وهى تنظر إليه :

ـ ألا أطلعهم على شىء .. أليس كذلك ؟

اقترب منها وهو يبتسم ابتسامته المغرورة الساخرة ويقول :

— وتقولين لو كانت هناك امرأة اخرى .. وهل توجد امرأة فى العالم تفهمنى مثلك ؟

* * *

كم من صورة للكائن المجهول داعبت خياله .. فتارة يتخيله قرداً جذاباً ، وسيما ، يتحدث بلباقة ، ويتحرك باختيال ، واخرى مشوها بلا أذرع وسيقان .. ولكن هناك صورة واحدة لم يستطع تخيلها .. فمجرد توقعها كان يريبه ، يشعره بالعجز والفشل ، وظلت هذه الصورة تطارده فى صحوه ونومه .. فى قراءته واطلاعته .. حتى كاد القلق يلتهمه ..!

فتحت ياسمين — شقيقة اشجان — باب البيت ، لم تعرفها ، لقد تغيرت ملامحها كثيراً ، صارت هرماً ، هشاً ، كانت مرهقة ، وتسمرت ياسمين أمامها كزهرة متفتحة تنتظر .. اذ ماذا تريد الطارقة ، وبمجرد أن لمحت ادهم صرخت قائلة :

ـ اشجان !

وبلهفة تسعة أعوام من الشوق التقيا .. ودخلا البيت ، وامطرهم ابوها بوابل من الاسئلة : كيف تغيبتما طوال هذه الفترة ؟

وصاحت ياسمين تقاطعه بصوتها العذب الرخيم :

ـ لقد بحثنا عنكما فى كل مكان .. فلم نعثر عليكما ، أين ذهبتم ؟

كانت اشجان تنظر الى ادهم وكأنها تسأله اخراجها من هذا المأزق . وقالت اشجان وهى تقترب من طفل ـ ياسمين ـ الصغير .. تشده من ذراعه .. وسألت :

ـ من هذا ؟ ابنك ؟

أجابت ياسمين :

ـ بسام ابنى الوحيد ، الذى خرجت به من الدنيا .. وليس لى أحد سواه .

ـ متى تزوجت .. وممن تزوجت ؟

ـ زوجى موظف بسيط فى وزارة الصناعة

وقالت بسخرية غير مقصودة :

— أنا — ياستى — لا زوجة عالم ولا مخترع .. فأنا مجرد فتاة عادية .

وكانت نظرة أشجان لشقيقتها ياسمين .. تختلف عن النظرة الماضية ، فكم كانت تسخر منها ومن حماقتها! فها هى ذى الآن تبدو كعروس فى ربيع العمر ، ومنحتها الحياة طفلاً وزوجاً يملآن حياتها بالسعادة .. اما هى الجميلة الفاتنة أخذت منها الدنيا كل شيء ، كانت كمن قامر فى ساعة واحدة بكل ما تملك يده ، فلما خسر .. فقد كل شيء .. وشردت اشجان طويلا ولم تنتبه لحديث ياسمين التى راحت تغدق عليها ألوانا من الحديث ، ثم انتبهت فجأة على قولها :

— وعندما توفت والدتى ......

صرخت اشجان فزعة :

— أمى ماتت !

تنهض ، تنادى عليها بجنون ، غير مصدقة اقوال شقيقتها ، فتجرى

خلفها ياسمين قائلة :

ـ اشجان هدئي من روعك .

تسقط في حالة اغماء ، لهول الخبر ، فتنادي ياسمين على أدهم وهي تحاول ايقاظها :

ـ دكتور ادهم .. بابا .. اشجان لم تتحرك .

حاول حملها ادهم الى الفراش متوجساً ، بعد أن امتقع وجهه خوفاً على الجنين . واستدعى والدها الطبيب .. وقبل ما يخرج الطبيب من البيت أصر على نقلها الى المستشفى ، وافق والدها على الفور ورفض ادهم بشدة وتعنت في رفضه .. رغم اقوال الطبيب بأن الولادة غير طبيعية ، لحاجتها الماسة لجراحة قيصريه .. يرفض بإباء .. وتحدى. يحاول والدها اقناعه .. ولكنه يقول :

انها زوجتي .. وأنا احرص عليها منك .

تفتح اشجان عينيها .. تبكي ، يرتفع نحيبها .. وتقول وفاء ازوجها وخوفاً على الكائن الجديد .. لا تخشى يا ادهم على الكائن الجديد ، لا تخشى يا ادهم على طفلك ...

ينظر اليها نظرة عميقة تسفر عن دفاعه فيقول :

— سأستدعى لك أكبر الاطباء ولن انقلك ابداً للمستشفى . فهمت ما يضمره ، فهو يخشى ان يكتشف سره .. وجاء الطبيب واجرى الجراحة القيصرية .. وقف ادهم مع الطبيب اثناء الجراحة .. وعندما فتح الطبيب الجراح بطنها أخذه الذهول وحملق بدهشة قائلا :

— المولود غير طبيعى .

ازدادت حالة اشجان خطورة فقال الطبيب :

— لابد من التضحية باحداهما .. وأنا أرى أن الطفل مشوه . لم يتردد ادهم لحظة واحدة فى الاختيار فقال متوسلا :

— الطفل .. أرجوك .. حاول إنقاذه بأقصى جهد ممكن ، ارجوك .

ذعر الطبيب لغرابة مطلبه وسرعة اختياره ! اذ كيف يضحى بامرأته مقابل طفل مشوه .

وتردد الطبيب ، ولم يجد مفرا من انقاذ المولود الذى خرج الى الحياة رغم المحاولات

المستميتة لإنقاذ الأم ، فقد احتاج الأمر لنقل دم ، ولم يسعفها وجودها فى البيت ، وخرجت الروح من سجنها بعد ان توقف قلبها نبضا لينبض قاب طفلة شاذة .. من ذوات الأربع ، وهمس الطبيب مندهشا :

— أغرب كائن رأيته فى حياتى .

ابتسم ادهم .. لقد تحقق ما كان يحلم به طوال حياته .

وقال الطبيب :

— لابد من وضع هذه الطفلة تحت الرعاية المركزة بالمستشفى لاجراء التحاليل عليها ، لمعرفة أسباب هذا التشوه .

وقبل ان يتم الطبيب حديثه مع ادهم .. غطى ادهم الطفلة وقال وهو يضمها :

— مستحيل ، انها ابنتى ، ولا أريد التشهير بها ، لقد انتظرتها عشرون عاما متواصلة .. فكيف تأخذونها لاجراء التحاليل ، مستحيل اسمح لكم بذلك .

تأثر الطبيب بأقوال ادهم .. بعد ان لعب دوره ببراعة ، ووثق الطبيب به وبانه لم ينجب طوال الأعوام الماضية ، وعندما رزقه الله بتلك الطفلة .. التى لم يتردد لحظة فى التنازل عن زوجته من أجلها ، عز عليه أن يعريها أمام الآخرين ، وخرج الطبيب لاتمام اجراءات حالة الوفاة .. بعد أن ترك اهم مأساة اشجان .. وولادة طفلة مشوهة .. وتكتم الجميع خبر هذه المواودة بناء على رغبة ادهم .

* * *

تصدرت الصحف صورة اشجان فى أول صفحاتها ونشرت تقول :

موت امرأة فى الثلاثين من عمرها .. اثناء انجابها طفلة غريبة الشكل ، ليست انسانا ولا حيوانات، مشوهة .. ورفض والد الطفلة الإدلاء بأى معلومات او تفاصيل عنها .. وقالت الصحف ان اختفاء الأب بعد الانجاب مباشرة ، واصراره

على اجراء الوضع فى البيت يثير الشكوك ، وطالب معهد الاحياء بالبحث عن الأب ومحاكمته لتستره ، واخفائه أحد الظواهر الحية التى يجب دراستها ، كما طالب معهد الرفق بالحيوان الدولة بضرورة القبض عليه لأنه يخفى كائنا غريبا ليس من حقه .. وسردت الصحف بعض المعلومات عن حياة ادهم ، وانه لايعيش وسط اقاربه بل يقطن بقعة غريبة ، لايعلمها احد .

وانفردت صحيفة « الوادى » بعرض جائزة قدرها مائة ألف جنيه لمن يعثر على الدكتور ادهم .. ونشرت صوراً مختلفة له ، حتى يتسنى للقراء التعرف عليه .. واجمعت على ان غرابة حياته ، تجبر الشرطة على البحث عنه ، لمعرفة سر هذا الكائن الغريب خاصة وهو العالم المشهور فى فرع الهندسة الوراثية .

وترك هذا الخبر وقعا مميزا فى نفوس القراء ، ليس فقط رغبة فى معرفة حقيقة هذا الكائن ، بل للفوز ايضا بالجائزة الكبرى . ولعبت الصحف

دورها ، واصبح الموضوع الرئيسى الذى يشغل القراء ، حياة ادهم والكائن الجديد ، فنشرت تفاصيل حياته ، ومنهم من كتب سلسلة بعنوان « العالم الهارب » وكان من أكثر الموضعات المقروءة لغرابته ، ودقة التفاصيل الحية التى نشرت به ، واصبح الدكتور ادهم واشجان حديث الساعة .... وتقرأ ياسمين التفاصيل وسيل من الدموع يتدفق من عينيها وهى ترى أحلام شقيقتها تتحقق ليتحدث عنها الآخرون بعد أن اصبحت سيرتها موضع اهتمام الجميع .

* * *

وفى غابة ادهم خرجت « اشاش » الى الدنيا — الكائن الجديد — غريبة عن الحيوانات ، بعيدة عن البشر ، وجهها وجه طفلة جميلة ، وتخرج تفاصيل انوثتها من خلال شعر كثيف يغطى جسدها كله وكأنها مغطاة برداء أسود حريرى طبيعى ، اظافرها تشبه أظافر سنوسى ، وساقيه ويديه وكفه العريض .

يمتلئ البيت ببكائها المنغم ، بصرخات طفلة رضيعة ، وبعد مرور اشهر جاء بسنوسى محاولا اقناعه بأنها ابنته ، ولم يفهم منه سوى انها مخلوق جميل يجب الرفق به ، صحيح انها تشبهه ولكن وجهها بديع ، يظهر متألقا فى هذا الرداء الأسود الجميل .

فحفل بلقائها ، يداعبها ، ويهدهدها ، وما أبدع منظره وهو يحملها باحدى يديه على بطنه ويسير على ثلاث كعادته فى حمل الصغار ، وينزهها بين فراديس الجنان ، ويأتى لها بأصابع الموز بعد أن يضعها بين احدى فروع الشجرة ، بعناية شديدة .

وظل ادهم متوجسا من أمرها ، تعثرت حالة نطقها . عامين وهو يترقب ... خشية أن تكون حيوانا فقط .. حيوان لم يحدث له أى تطور ، سوى وراثة مظهر رأس الانسان ... ينفض تلك الفكرة عن مخيلته ، مستحيل ان تفشل التجربة بعد كل ما بذله فيها من مجهود .

وجاء يوم ميلاده من جديد ، عندما خرجت اشارتها تعبر عما تفهمه ، فصرخت متألمة تشكو ما يؤلمها ، عندئذ أطمئن قلبه ، واستعاد ممارسة لعبته بأمان .. وراحت تردد الأشياء بصعوبة شديدة كسائر الاطفال .. مما اكد له نجاح خطوات تجربته .. الا خطوة واحدة كانت تقلقه وهى تغير الجينات المسئولة عن هذه الرأس ، فقد كان مقدراً لها أن تأتى كالشمبانزى تماماً بكامل هيئته مع بعض التعديلات البسيطة لإدخال التفكير عن طريق المخ ... ونظر الى هذا الخطأ على أنه ليس خطأ كبيراً ، ولم يحاول اجهاد ذهنه فى خطوة من الممكن تفاديها ، وتجنبها فيما بعد .

تنهد :

– آه لو منحنى الله عمرا طويلا ! لفعلت المعجزات ، وأخرجت سلالة كاملة ... حينئذ سيكون التلقيح والتزاوج طبيعيا بينها وبين ألشمبانزى .

* * *

يقترب سنوسى منه .. فيمسك رأسه ويقول له بتوجس :

ـ اما لو اكتشفنا عدم وجود عقل بها ، لخسرنا كل شيء وأصبحت مثلك لا تعى شيئاً !

يخفض سنوسى رأسه محاولاً نزح يده ، فيقول له :

ـ ألديك اعتراض ؟ فما العمل اذن لو كان الأمر كذلك ؟

وبنظرة مليئة بالفكر يقول بصوت منخفض :

ـ لابد أن تحمل رأسها مخا بشريا له جميع الأجهزة العصبية والحسية .

يغمض سنوسى عينيه وهو يسمع بما لا يفهمه ، قد تأتى بلا عقل ، بعصبية ينفض تلك الخواطر الشيطانية التى تهدد احلامه .

يفزع سنوسى منتبها على صوته وهو يردد :
— مستحيل .. مستحيل .
كان مجرد تخيل هذه الفكرة يفزعه ويريبه ، فسرعان ما ينفضها وإلا ذهبت أعوامه السابقة هراء .
تمر الأيام بطيئة ، ينمو جسدها بسرعة ، ولم يزد على حجم جسد أبوها — سنوسى — ولكن ما يحيره أنه مر عاماً ولم تنطق بعد ، ولم تفعل اكثر مما تفعله القردة الصغيرة ، يعيد قراءة خطواته ، يفتش عن اخطائه ، فالخطأ الوحيد الذى أهمله هو ذلك الجين المسئول عن المظهر الخارجى فقط ، اذن فالتجربة تسير طبيعياً كما يرام ، وكما يرغب ، وعلى هواه ... فلا بد أن تنطق ، وهناك أطفال تتعثر حالة نطقهم ثم يتحدثون فيما بعد بشكل طبيعى جداً .. يروض نفسه بتلك المبررات ، ووقعت نفسه على العديد من الأسباب التى تريحه ، وتخفف من وطأة هذا القلق الذى يخيم على حياته من حين لآخر ، ولم تعره مشكلة ذلك الكائن الذى أتى به الى

الحياة ، وماذا سيكون مصيره اذا وعى حقيقة أمره ، وانه اقترف أبشع أثم فى حق البشرية ، كل ذلك لا يشكل لديه أية قيمة ، والشيء الرئيسى الذى يهمه هو تأكده من قدرته على الاتيان بنسل جديد ، يختلف عن الانسان والحيوان ..

عاشت اشاش ما يقرب من عامين بين الحيوانات ، فى احضان الشجر ، بين الغصون والوديان .. يروق لها اللعب مع صغار الحيوانات الذين يجدونها أجمل منهم وأرق ، تجرى معهم على أربع وتقفز مثلهم على الشجر ، محاورة اياهم ، واكثر ما يدهشهم صوتها الغريب عندما تصرخ وتئن ، وتضحك تلك الضحكة التى تغريهم بملاحقتها دائماً ، والاستمرار فى اللهو معها ، يتسابقون فى حملها ، يتوددون إليها ... و كثيراً ما كانت تقلد أصواتهم ، وحركاتهم ، أما سائر القردة يجدون متعة فى تعليقها وقذفها الى بعض ، تارة من يدها واخرى من رجليها .

بلغت الثالثة من عمرها ، تصحو من رقدتها فوق الشجرة ، وتضم فمها بين كفيها لتعوى كالذئب وكأنها تصيح صيحة الديكة لتبشر بميلاد يوم جديد .. وتقفز على اربع من النافذة لتجرى بين المروج وتأكل مع الحيوانات ... كان الصغار يغارون منها لأنها استطاعت برقتها ورشاقتها أن تأسر كل الحيوانات بدءا من الدرصة وحتى الفيلة .

لاحظ ادهم طريقة التفاهم الواضحة التى نشأت بينها وبين الحيوانات ، فغبطها أشد الاغتباط على تلك القدرة التى اكتسبتها ، فيراهم يتشاجرون ، يشدونها فتجرى منهم ، فيلاحقونها ، ثم تبكى فيقبلها أحدهم ويضمها اليه ...!

قصص من الشجار والوئام ، والخصام والهجر تتم فى هذا العالم الذى لم يستطع فهمه .

الدنيا لم تسعه وهو يلمح أول علامة من علامات نجاحه فى قدرته على فهم لغة وحوار الحيوان .

وتساءل ادهم :

– هل سيجد صعوبة فى تعليمها لغة البشر ؟ ان لغة البشر تتوقف على وجود المخ ومركز السمع والقدرة على تخزين المفردات والكلمات داخل المخ .. لأن القدرة على الكلام بحاجة لتجميع كلمات ومعان وجمل تقال على مسمعها .. فإذا كان هناك مخ لتحققت المعجزة .. وأبتسم وهو يحملق فى السماء من نافذة غرفته .

يفكر .... كائن يتحدث لغتى الانسان والحيوان ، ما أعجبه ، معجزة ! فمجرد فهمها وتحدثها واتقانها تلك اللغتين فى حد ذاته معجزة .

جلس معها ، يخاطبها ، ويحاورها ، وأخذ يخطط فى طريقة لتدريسها ، وبدأ فى فرض قائمة الممنوعات ولوائح المحذورات :

– ممنوع النزول للغابة ، عدم الرقاد بين الغصون وفوق الأشجار وفى بيوت الحيوانات ... وعدم تناول الطعام بينهم والجلوس على الارض

معهم .... والاستحمام فرديا ، وليس جماعياً .

وعندما نهض من مقعده سار الى بيت الشمبانزى ، فوجدها جاثمة بين يديه ، جذبها بشدة من معصمها ، فصرخت وهى تتبعه ... وتبادل سنوسى وابنته اشاش نظرات الاسترحام التى على اثرها حاول الدفاع عنها ، فنهره ادهم ولكزه واستشاط غضبا ، محذرا اياه الاقتراب منها ، ولكن النصر دائما لأدهم ، فسارت باكية مع أدهم ، تتلفت خلفها وهو يجرها بقسوة وعنف .. صاعدا بها الى البيت .. ثم ادخلها غرفة مجهزة ومعدة لنوم فرد واحد وقال وهو يشير الى الغرفة :

— هنا ستقضين يومك ، ولا يجب الخروج من هذه الغرفة . والقى عليها تعليماته الصارمة .

تلفتت إشإش يمينا وشمالا .. وبدا لها هذا المكان المغلق سجنا رهيبا ، وشعرت بالاختناق ، حاولت النهوض فأجلسها قائلا وكأنه يحدث قطة يمتلكها .. يخيفها بالكرباج :

ـ اذا خرجت من هنا ، سأجلدك بهذا الكرباج .

كان منظره مخيفا وهو يمسك الكرباج باحدى يديه وبالاخرى طرفه المدبب .. وكان هذا الموقف أول انطباع تأخذه اشاش عن شخصية ادهم .. القسوة والخوف والرعب .

وبدون رضا راحت تنفذ اوامره ، بلا اعتراض أو مناقشة ، وارسلت عيناها تلك الأشعة الغامضة ، التى تصدر أحياناً من العقل وليس من القلب .. وتغوص نظراتها فى الكرباج وهو يتحرك بين كفيه .. لتعلم أن هناك شيئا فى هذا العالم يسمى الظلم .

خرج واوصد خلفه الباب ، رأت اشاش الغذاء موضوعاً أمامها على طاولة صغيرة ، والمهاد معدا للنوم .. لمحت زجاج النافذة فبدت وكأنها عثرت على كنز ثمين ، راحت تتحسسه بكفيها العريضين اكتشفت انها تطل على الحديقة ، فقفزت بسرعة عيناها بحثاً عن أصدقائها ،

فلمحت سنوسى قابعاً بين الشجر ناظراً الى البيت بحزن ، فتحت النافذة وصاحت بصوتها المنغم الانثوى تعوى كالذئاب . قفز سنوسى فى الحال بحثاً عن مصدر الصوت ، فاوحت له بيدها وبحركات بهلوانية ، قفز أمامها بسرعة على حافة النافذة ، وظلا يتهامسان ويتناغيان بهمهمة لا يفهمها أحد سواهما .. يقول لها :

— مالك تبدين شاحبة ؟ سأحضر لك اصبعين من الموز ، فيبدو انك لم تتناولين طعاماً هنا .

تقول وقد كسى وجهها الحزن :

— ليس لدى أية شهية للطعام ، لقد اعد لى — صاحبكم — مائدة غريبة من المأكولات .

— ماذا بها ؟

تتلفت خلفها لتترجم له ما تحتويه المائدة من مأكولات قائلة :

— بها جبن وزبد ومربى وكوب لبن ، طعام غريب لم أره من قبل .

يقول لها بحنان :

ـ اذا لم ترغبى هذا الطعام فلا تقدمى عليه ، وسأحضر لك الفاكهة التى تحبينها .

ـ ولكن اذا جاء وأكتشف ذلك ، سيثور عليّ وربما ضربنى بكرباجه على ذلك .

بحيطة وحذر يهمس قائلا :

ـ لا تخافى ، سأجنبك كل شيئاً ، اذ كيف تخافين شيئاً وأنا مازلت على قيد الحياة .. يكفى ان تشيرى لى مجرد اشارة او ترسلى لى هذا الصوت :

وانبعث منه صوتاً خفيفاً يشبه الصفير ، وأتم حديثه قائلا :

ـ لأكون لديك فى لمح البصر .

ترقرقت عيناها بالدموع متسائلة :

ـ لماذا يحرمنى منكم ؟

يجيبها بحكمة وخبرة أعوام فى الحياة :

ـ يا أبنتى هذا هو قدرنا ولانملك رده ، انه أقوى منا وأجمل وأرقى ، هو الذى يسيطر

علينا وليس نحن ، وبوسعه ان يفعل بنا ما يشاء ....

وشردت منه اشاش وراحت تتردد على اذنيها كلمة واحده وهى كلمة الاقوى .. فمن الذى منحه هذه القوة ليفعل بهم ما يشاء ؟

قاطعته قائلة :

– وله الحق فى تفريقنا ؟

– ايضا هذا من حقه .

وفجأة سمعا وقع خطوات تقترب منهما ، فقالت مذعورة ، وفرائسها ترتعش :

– أذهب الآن .. لقد أتى ، لقد أتى ، واغلقت النافذة ، وأسرعت الى مهدها ، متظاهرة بالنوم .

فتح باب غرفتها بالمفتاح ، ثم اقترب من فراشها وأسدل عليها الغطاء ... أرتجفت أهدابها خوفا من أن يكون قد سمع حوارهما ، بينما راح هو يمسح بكفه على شعرها وهو يتأملها ،

ثم خرج ، فتنهدت تنهيدة قوية زفرت فيها كل خوف الدنيا الذى أبتلعته فى ثوان .

* * *

وكما أعتادت اشراش بمرور الوقت طعامه ، أعتادت أيضا لقاء سنوسى خلسة . .

يقول لها سنوسى :

ـ لقد سأل عنك كل العشيرة ، فالجميع يترقب أخبارك .

قالت بنظره تحاول فيها استعادة الماضى القريب :

ـ كم اشتقت اليهم والى لعبهم وجريهم ، كانت أياما جميلة ، ليتها تعود !

وبعد لحظة صمت لم تستغرق اكثر من ثوان معدودة ، وبمكر قالت :

ـ أو اننى أستطيع الهرب ؟ !

وقبل الانتهاء من جملتها أفزعتها اجابة والدها محذراً اياها بعنف قائلا :

ـ اياك والتفكير فى مثل ذلك الأمر ، انه لن يعاقبك وحدك وانما سيشمل عقابه سائر حيوانات الحديقة ، اننى اعرف ذلك الكائن جيدا ، خاصة عندما يحب حيوانا ، فلابد ان يقتنيه ويحبسه ، ليتمتع به وحده ، فهو شديد الأنانية ، لا يعرف الرحمة ، فأرجوك يا ابنتى .. اجتنبى قسوته ، ظلمه ، وبطشه ، فما أبطش هذا الكائن وغروره .

ورغم كل ما يقص عليها ، فإن الرغبة ظلت تنمو بداخلها ، الرغبة فى معرفة هذا الكائن وفك طلاسمه ، ولكن ما بالها تخاف عليه ؟ تتمنى ان يكون عكس ما يصفون ، بل انها فعلا تشعر بأنه أرق مما يصفون ، ماذا بها ؟ ألعله الحب ؟ ولماذا لايكون ذلك ؟

وكبرت رغبة الأنثى بداخلها ، تريد ترويد هذا الكائن . تنفذ أوامره بلا رد او اعتراض ، علمها كل شىء فى البيت ، مثل سنوسى تماماً ، ثم انتقل للخطوة الثانية وهى محاولة تعليمها

النطق ، وكانت فى ذلك أسرع من سنوسى فهما ... يمسك أدهم القلم ويشير إليه بإحدى اصابعه ويسألها :

ــ ما هذا ؟

تجذبه ... وتقربه من ثغرها ، فيضربها بكفه قائلا :

ــ هذا قلم .

تنظر له بصمت وتردد بتلعثم :

ــ قـ ... لـ .... م .

يخط به على الورق ، فتبتسم ، وتمسك به لتقلده ، بخطوطها الفطرية العشوائية .

يقول لها :

ــ كررى ورائى ... بابا .

تهمس :

ــ ها ....

يردد :

ــ بابا .

جذب سنوسى ، وأجلسه امامها ، وراح يشير اليه قائلا :

— بابا .

وفجأة خرجت حروف تلك الكلمة من بين شفتيها فقالت وهى تشير اليه :

— بابا .

وبسرعة البرق جذبها وضمها بين ذراعيه ، ودار بها وسط الغرفة ، فرحا ، حتى شعرت أنه كاد يطير طيراً ، شعرت بالسعادة وهى تراه فرحاً ، سعيداً .. وقال وانفاسه تتلاحق ، بعد أن وضع كفه على كتف سنوسى ، يسأل اشراش :

— من هذا ؟

صدرت منها نغمة هادئة :

— سنوسى .

فاجأته اجابتها .. فقال :

— من ؟

أجابت :

ـ بابا سنوسى .

ثم أشارت بإصبعها على ادهم وهى تقول :

ـ وأنت بابا .

افزعه قولها .. فهى ليست ابنته ، وانما ربيبته ، فهو الذى صنعها ، فقال وهو يضغط على كلماته :

ـ كلا ... انا الدكتور ادهم .

يفتر ثغرها عن ابتسامة بريئة فتظهر اسنانها الصغيرة متراصة بإبداع وجمال ثم تقول :

ـ دهم .

فيضحك ضحكة قوية تملأ رناتها اصداء البيت .

ويعلمها الاشياء ، تنطق ، تهمس ، تشير ، وأصبح لها رأيا ، تريد هذا وترغب عن ذاك ، تحب ذلك وتكره هذا .

ونجحت الخطوة الاولى فى تعليم الكائن الجديد .

يجلس ادهم على مهدها ، يتأملها ، لم يكن ادهم رجلا ، ولم يكن انساناً ، بل كان

عقلاً ، متمرداً ، عاصياً فهو سيد الكون ، وملك الكائنات والحيوانات ، ومن السهل جداً ترويضها ، واستغلالها ، هذا هو حال ادهم عندما يحدث نفسه ، فتشعر بأن استغراقه وتأمله لابد وان يسفر دائماً عن شيء ما ، انه يشعرك بقدراته الخلاقة .

يتحسس كل لحظة مخلوقته « إش إش » يتأملها .. خصلات شعرها الذهبية الناعمة ؛ تغطى جبينها البارز ، الذى يشبه لحد كبير جبين الشمبانزى ، وعيناها الخضراوان مغمورتان فى وجهها بدقة شديدة ، انفها الدقيق الاملس ، وفمها الصغير المعقود ، وشفتيها الدقيقتين ، وجهها يشبه تماماً وجه اشجان ، والغريب ان هذا الوجه الجميل لا يحمله سوى جسدا كثيف الشعر ، وانامل عريضة ، جسد يشبه جسد ابيها الشمبانزى .. أتراها أنثى فى شكل قرد ؟ يغطيها ، فتتململ فى رقدتها ، يسحب الغطاء فوق جسدها ، يفكر .

مستحيل ان تكون انثى فى شكل قرد ...
انه اراد قردا بعقل ، بمخ ، قردا يفكر ، حيوانا يبدع ، ويتأمل ، ويعبر عن ذاته .

ينهض متوجها لمكتبته ويخرج بعض المراجع ، يعيد المعادلات الوراثية والنظريات الفرضية ... اتراه اعكس وضع الجينات ؟ وعملية القص واللصق التى أجراها ! أأخطأ فيها ! ؟ مؤكد أنه أخطأ .. معنى ذلك انها ستصبح انساناً فى شكل قرد ! يحرك رأسه بضيق بين كفيه ، اذ كيف حدث ذلك ؟ هل اضطراب زوجته هو الذى جعله يخطئ ؟ أم ان هذا عقابا قدريا ، يمثل قصور الانسان وعجزه فى الخلق ؟ وان خطأ بسيطاً فى وضع الجينات المسئولة عن الصفات الشكلية ، والتكوينية للانسان والتى توجد على الكروموسومات يؤدى لتشوها غريب مثل تلك الحاله؟ ولكن ! ماذا يفعل اذا ثبت انها انسان وليست حيوانا ؟ سيصبح هو الجانى ! وماذا سيكون مصيرها ؟ ينفض تلك الفكرة رفضاً تاماً ،

فمجرد توقع فشله فى التجربة يدمره ... ولكن متى سيتأكد ؟ من تصرفاتها ... وهل ستأنس بالحيوان أم ستنفر منه ؟ رغبته فى نجاح التجربة واثبات حيوانيتها تجعله يضعها عن قرب من أبيها ، وصغار القردة .

وكان أبوها سنوسى يزهو بها بين أحفاده ، لامتلاكه اجمل كائن فى الكون ، مجنبا اياها اذى الآخرين ، ولم يدعها أبداً وحدها ، واذا تركها راح يراقبها عن كثب لئلا يصيبها سوء ما .

كبرت إشإش وسط حياة أدهم الغريبة عليها . والتعليمات الدائمة التى يفرضها عليها ، وحياة سنوسى الاكثر هدوءا وسعادة .

وتصرخ اشاش متعلقة بسنوسى ، ويرفض ادهم ان يتركها لتنام وسط الحيوانات .

تظاهرت بالرضا ، وسكنت .. وسار سنوسى حزيناً لتركها رغماً عنه تثاءبت ، متظاهرة بالنوم ، وبمجرد خروج ادهم من غرفتها نهضت من

فراشها ، وقفزت من النافذة .. باحثه عن سنوسى وما إن لمحها سنوسى إلا وقفز متجها إليها ، وحملها صاعداً بها الى الشجرة بين الغصون على ثلاثة أفرع .

رقد سنوسى ورقدت بين ذراعيه إش إش وكأنها تحتمى به من كروب الوحدة .. وفى الفجر اسرعت لتدخل غرفتها من النافذة متظاهرة بالنعاس على المهاد الوثير .. وفى اثناء قفزها .. لمحها ادهم من شرفة غرفته ، فأسرع وامسك العصا مشيراً الى سنوسى بالحضور ، فأتاه مهرولاً ، وسار بهما الى غرفة مكتبه ، وتغيرت ملامح سنوسى لتسفر عن الغضب والخوف ، واخذ ادهم يضربه بعنف ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى يضربه فيها ادهم ، عقابا على جريمته الشنعاء .. اذ كيف يخالف اوامره ويرقدها بين الغصون ؟ ثم وجه نظره اليها قائلاً :

— اما أنت فلك عقاب آخر .

وادخلها غرفتها ومضى يقول :

ـــ ما اقوله يجب تنفيذه ، بدون اعتراض ، فأنت ملكى أنا وأفعل بك ما أشاء ، وعندما آمرك بالرقاد على الفراش فلا يجوز الرقاد الا عليه ، والا سأعاقبك بمثل ما عاقبته .

كانت تسمعه بذعر ، فكيف ؟ ولماذا يقسو عليها كل هذه القسوة ؟ وكيف يضرب سنوسى هذا الضرب المبرح لمجرد تواجدهما معا ؟ قالت له ؟

ـــ ولكن ماذنبه هو ؟ فأنا التى ذهبت اليه ولم يسألنى ذلك قسرا أو عنوة ؟

ـــ كان عليه الا يطاوعك .

قالت بتخاذل وضعف :

ـــ ولكننى أخاف النوم وحدى .. ثم اننى لم ارتح الا فوق الغصون ، ألست منهم ؟

أجاب بعنف :

ـــ كلا ، لست منهم ، فأنت أرقى ، وأفضل ، ويجب ألا تفعلى ما يفعلونه ، ولك الفخر أن تعلمين انك هنا سيدة هؤلاء جميعا .

ـــ ولكننى احب والدى !

ـــ وأنا !

ـــ احبك طبعاً ، ولكنه يحمينى من كل شىء ، من الليل والوحدة ، ويحاول أن يرقد بجوارى ، ولكنك لم تفعل ذلك أبداً لماذا لا تأخذنى لأرقد بجوارك على فراشك ، بدلا من ترددك علىّ وسط الليل لترقبنى ؟

ادهشه سؤالها ، فأجابها متلعثما :

ـــ يجب أن تتعودين النوم بمفردك ، فأنت لست مثلهم .

ـــ أنا لا أريد أن اصبح وحيدة مثلك ، فأنا احبهم وهم يحبوننى .

ـــ وأنا أيضاً أحبهم .

ـــ ليس صحيحاً ، لأنك لو كنت تحبهم ما فعلت ذلك بأبى الذى يرعاك ويخدمك ، ورغم قسوتك الا انه يحبك .

ـــ من قال لك انه يحبنى ؟

ـــ هو .

بهت :

ـ كيف ؟

ببساطة أجابت :

ـ هو الذى قال ذلك بنفسه .

ـ أو تفهمين لغته ؟

ـ طبعاً .

ـ ولغتهم جميعا .

ـ بالطبع ألست منهم !

ينفعل مرة اخرى :

ـ كلا لست منهم ، وقلت لك ذلك مراراً ، انت لست منهم ، أنت أفضل ، أرقى ، ملكة الكون ، وسيدة هؤلاء جميعاً .

بتأمل تكرر :

ـ ملكة الكون !

ـ طبعاً ..

تنظر من الشرفة ، تشعر بأنها ملكة هؤلاء ، يملؤها الفخر تسأله :

ـ وأنت ؟

– ماذا بى ؟
– أأنت أيضا ملك الكون ، انك تسودهم ، فهل أنت الملك ؟
شعر بفداحة المقارنة ولكنه تقبلها ...
واردفت تقول :
– ولكنك أجمل منهم جميعا .
– وأنتِ أيضا أجملهم جميعاً .
– ولذلك تنام بمفردك ؟
– نعم .
باقتناع تقول :
– وأنا أيضا سأنام بمفردى ، لأننى أجمل كائن فى الكون .
وفجأة قالت تسترحمه :
– ولكن أرجوك ، أن تصفح عن والدى .

* * *

تغيرت معاملتها مع سنوسى ، حاولت أن تبتعد ، بعد اقتناعها بأنها ملكه جمال الكون ..

ولابد أن يعرفوا أنها أرقى وأفضل منهم جميعاً ، وبأنها سيدتهم ، وظل الحوار قائماً بينها وبينهم ، الا أن انطباعها تغير كثيراً .

بلغت العاشرة من عمرها ، تعلقت به ، خاصة وهو كل يوم يغذيها بحديث الكون ، حتى سار الكون لا يجمع سواهما ، واقتنعت تماماً بذلك ، انه ملك هؤلاء ، وهى سيدهم . كبرت ، وكبرت معها أحلامها ، أحلام كل فتاة تحب .

تأنس بالحيوانات فى زهو وخيلاء ، سنت قوانين للطعام والخروج والدخول ، واللهو واللعب ، حتى اصبحت هى الآمرة . الناهية فى تلك الغابة الصغيرة من الحياة .

وكلما ازداد ذكاؤها وفهمها للأمور ، ازداد ادهم اعجاباً بنفسه وفخراً بنجاحه ، وكله أمل فى تعليمها كل شىء ، وعندئذ سيخرجها للعالم لتكون معجزته الخارقة .

وعندما بلغت الثانية عشر من عمرها ، كانت

تجيد القراءة والكتابة ، والحديث باللغات ، كل ذلك وهو يبذل قصارى جهده فى تعليمها وتحفيظها الاشياء كلها . وأصبحت لا تلوى على شىء إلا رغبة فى إرضائه ، وكانت أكبر مكافأتها هى ابتسامته ، او نظرته العذبة الهادئة ، فابتسامته وحدها كانت كفيلة بأن تحيل الغابة أمامها لجنة وارفة الظلال .

وكلما تفوقت فى شىء ازداد طمعاً ورغبة فى تعلمها المزيد علمها الطبع على الآلة الكاتبة ، كل ذلك وهى تستجيب ، ولكن فى أعماقها لغزا يؤرقها ، هذه الغرفة التى لا يقربها أحد سواه ، لماذا يحذرها من الاقتراب منها ، يحيرها هذا الامر ويثير داخلها العديد من علامات الاستفهام .

علمها كل شىء ، أصبحت ترتدى معطفاً وكاباً ، وتمسك — كرباجا — لترويض الحيوانات ، سكان الغابة .. تسير بخطوات تشبه خطوات امرأة تزهو بجمالها ، لا تقفز الا اذا

احتاج الأمر ذلك ، ولا يجرؤ حيواناً ان يخالف لوائح الممنوعات وقوائم المحذورات التى وضعتها لهم فى قانون الغابة الجديد .

تقف أمام الأسد ، تناقشه ، يظل يزأر ، يهمهم ، تقنعه بطريقتها المجهولة برأيها — يفهمها وتفهمه — وعندما تسير مع أدهم تشعر بالفخر ، وبأنها مع أجمل مخلوق فى الحياة .

يسألها الآخرون :

— عما يحدثك هذا المخلوق ؟

تجيبهم بسخرية :

— وما شأنكم بذلك ؟

يغارون عليها منه .. يشعرون انه سلبها وسرقها منهم ، فأصبحت لا تضحك ولا تمرح الا معه .. لماذا أصبحت ملكه وحده فقط ؟ يثيرون أبوها لعدائها ، يقترب منها سنوسى متسائلا بلغته التى لا يفهمها أحد سواها :

— أحقاً ما سمعت ؟ انك تؤثرينه علينا ؟

— عمن تتحدث يا والدى ؟

– عن هذا الرجل الذى لا يعرف قلبه الرحمة .

– لا تقول عنه ذلك .. انه رحيم جداً .

– انه لا يعاملنا مثلما يعاملك .. لماذا ؟

– كيف لا تلتمس له العذر وهو لا يعرف لغتكم ؟

– ولكننا نفهمه ، فهو يريدنا طوع أمره ، لا نخرج من اقفاصنا الا باذن منه ، أليس كذلك ، وأنت لم تعودين تمارسين حياتك الطبيعية معنا وبيننا ، أأصبحت مثله .. تأنفين حياتنا ، وترغبين عنا .. ويحلو لك الاختلاف الى مكتبه صباح ، مساء .

– وماذا فى ذلك ؟

– انه يسىء معاملتنا ، وأنت معنا أم انضممت اليه ؟ اريد معرفة ذلك ... اجيبينى ؟

– اسمع يا والدى .. انه يحسن معاملتى ، يعلمنى كل شىء جميلا ... ويحسن مسوَاى،

ويخاف عليّ من كل شيء . وأمسكت أحد فروع الشجرة التى أمامها وقالت :

ـ انه لا يستطيع أن يتحمل رؤيتى مريضة ، يجن اذا رآنى متوعكة يفزع لو لمحنى هزيلة .. انه اكثر قربا اليّ منكم جميعاً .. يدخل مخدعى كل ساعة تقريباً ليطمئن على حالتى ، وأنتم لا تشعرون بى مثله .. لأنكم ادنى منه قدراً .. فهو اكثر منكم فهماً وشعوراً ووجداناً ورحمة .

سألها :

ـ هل يرقد بجوارك ؟

تلعثمت :

ـ لم اطالبه بذلك .

قال بحنان الاب الذى يصارع من أجل ابنته :

ـ الحنان لا يسأل .. ولكن يمنح ، والحقيقة يا ابنتى انه ينفر منك ، لأنك لست منه ، فلا يستطيع ملاطفتك مثلما أفعل أنا ، وهب أنك

مريضة ألا يستدعى ذلك الرقاد بجوارك ؟

تذكرت كلماته وتعليماته .. واقتناعه بأن الكائن المتطور يرقد منفردا ، فقالت وهى تبدو غير مقتنعة بما تقوله :

ــ ولكن أنا أكثر تطورا منكم، واى كائن راقٍ لابد أن يرقد بمفرده وليس معه أحد ، فأنا لستُ مثلكم .

ــ انك على غير هدى ، فهو يأنف منك ، لأنه لا يحبك مثلما تعتقدين لأنك لست منه وانما منا .

اختفت اشراس بسرعة من أمامه وهى تصرخ قائلة :

ــ كلا لست منكم .. ماذا تريدون منى ، انكم تحقدون علىّ لأننى أفضل منكم ، وتغبطوننى لأننى اظفر منه بأكبر قدر من الرعاية أليس كذلك؟ ولكننى لن أدعكم تشوهون حقيقته أمامى ، وليعلم كل قدره ، فأنا هنا ملكة الغابة وسيدتها التى تأمر وتطاع فقط ولاتناقش .. وكما يفعل

معها ادهم أحياناً .. قالت متقمصة شخصيته :

ــ الحديث انتهى .

وسارت الى غرفتها .... وعلامات الاستفهام تكثر من حولها :

من هى ؟ ومن أين أتت ؟

هل هى منهم ؟ إنها لا تشبههم !

ام انها مثله ومنه ؟ ولكنها ايضا لا تشبهه !

انها حالة منفردة جداً .. فهى وسطاً او خليطاً بين هذا وذاك !

* * *

الفصل السادس

أصبحت تمارس أعمال البيت كربة اسرة مسئولة عن كل شيء وأصبح أدهم يتأملها بنظرة جديدة ، يرى فيها كل شيء جميل تأسره رقتها الفطرية ، ويسعده ذكاؤها ، على عكس الرجال الذين تخيفهم المرأة الذكية ، اذ كيف يخشى قوتها وهو رجل يحس قوته وسطوته .

رويدا .. رويدا تسلل اليه شيئاً خفياً ، لم يدركه طوال حياته .. فحرصه عليها كان حرصا منفرداً لا يحده شيء ، ربما لأنها لوحته الفنية التي يضيف اليها كل يوم شيئاً جديداً ! وكانت إش إش ترى العالم من خلال عينيه .. فتحب ما يحب .. وتأنف ما يكرهه ، يحلو لها الحديث معه اثناء جلوسه أمام أوراقه ، ويشعر ادهم

إنها أصبحت تشكل عاملا حيويا وأساسيا فى حياته ، وأصبح رأيها فى الاشياء له مكانته وتقديره لديه .. وظل يرفع كل يوم من شأنها ، وتزداد قوة وحماساً بجواره ، فترى العالم ضئيلا بجواره وهو شامخ كالبنيان .

بلغت السادسة عشر ... أصبحت كزهرة برية .. انبتتها القوى الشريرة فى غفلة من الزمن ، فى عالم ليس بعالمها ، وأرض ليست بأرضها ، فبأى ماء ترتوى به وأى ثوب ترتدى وقد دبت فى شرايينها دماء الانثى ليجرى فى عروقها هذا اللهيب المستعر فمن سيطفىء هذا السعير؟ ومن سينقذ شبابها من الطوفان الذى كاد يغطيها .. فلا يظهر منها سوى شعر أسود كثيف ، تخفيه تحت الثياب الحريرية التى كثيرا ما يغدق به عليها ، لتبدو كالملكة وسط رعاياها من الحيوانات .. وأى ملكة هى ! ملكة اسطورية رأس انسان وجسم حيوان .. تسأله وهى تحرك رأسها بتعجب :

– لماذا تشبه رأسي رأسك .. ويشبه جسدي جسد سنوسي ؟ ان هذا الأمر يحيريني !

وقع سؤالها على قلبه ، فأصابه بالاضطراب .. ولم ينقذه ذكاؤه في الخروج من هذا المأزق والرد عليها .. اذ لم يتوقع أبداً منها مثل هذا السؤال .. كل يوم تفاجئه بشيء جديد ليكتشف انه أمام عقل ذكي .. يخيفه ذكاؤها ، اردفت تقول :

– انني اغرب كائن في هذه الحياة .. اتحدث معهم ، ومعك .. والغريب ان كلا منهم له شبيه .. وأنا .. أنا فقط التي ليس لها شبيه ، والتفت حوله وأخذت تطيل النظر فيه وقالت وكأنها وقعت على شيء تغافلت عنه طويلا :

– وأنت ! أنت أيضا ليس لك شبيهاً .. لماذا ؟

وتضحك بسخرية وهي تقول :

– ألأنك الملك وأنا الملكة ... أليس كذلك !؟

كانت تزداد الوخزات والطعنات التى يتلقاها ادهم من اشاش فى كل كلمة تنطق بها .. فهو الوحيد الذى يشعر بآلامها وجراحها .. يحاول قدر استطاعته ان يبعدها عن هذا الموضوع رحمة بها واشفاقا عليها يسألها عن الحيوانات وأحوالها ولماذا لا تكتب حوارها معهم .. وكيف يتسامرون ويتبادلون الأحاديث وهل تقع فى حياتهم الخيانة والكذب .. كل شىء وكل ملاحظة يسألها تدوينها .

واستطاع بهذا الحديث ان يسلخها من الطور الذى باتت تعيشه ، ولكنها فشلت فى الخروج منه أو التحول الى غيره أو الثبات عليه ... وكانت تفهم جيداً تلك اللعبة الذكية فتتظاهر بالتجاوب معه ، ولكنها لم تنس للحظة واحدة هذه المسائل التى باتت تؤرقها فتبدو امامه كطفلة صغيرة تسأل عن أسرار الكون وخفايا الميلاد .. من اين اتينا ؟ والى اى هدف نسعى ؟ ولماذا نختلف كل ذلك الاختلاف ؟ واصبح البحث

عن الحقيقة هو شغلها الشاغل ... وكل يوم تحيره اكثر من اليوم الذى سبقه .. قالت تجيب عن أسئلته :

— لقد عرفوا ان هناك قوانين عليهم اتباعها .. وتم القضاء تماماً على الفوضى بينهم ، وكم هم محبون لا يعرفون الغدر أو الكذب .

ابتسم نصف ابتسامة وهو يردد قائلا :

— أو ضعت لهم قانونا أيتها الملكة الجميلة !

وكما ان للنوشادر رائحته القوية النفاذة .. للخداع أيضا رائحته التى لا تقاوم .. رائحة تخنق الانسان بالشك والحيرة . وكان لخداعه تلك الرائحة القوية التى لم تعد تقدر على مقاومتها ...

كانت تنظر اليه بعينين تملؤهما الحيرة .. نظرة تعريه وتجرده من ثيابه واقنعته ، لتكشف الستار عن وجهه المشوه وحقيقته المفزعة .. نظرة تحد ... تهديد ، حتما سيأتى الوقت الذى ستعرف فيه كل شىء .. وينكشف الستار عن

أسرار حياتها، وعندئذ سيكون مصيره بين يديها، هكذا قالت له عيناها .. وتركته وخرجت بعد ما خلفت وراءها سيلاً جارفاً من الاسئلة .. ولأول مرة يعرف ادهم الخوف ، أتراه حقاً يخافها ؟ أم انه يخاف عليها ؟ ولماذا يخاف عليها ؟ أليس من حقها البحث عن الحقيقة ؟

وتراوده نفسه بكشف الستار عن حياتها .. لتعرف من هى ، ولكن كيف يصارحها بالأمر ؟

فمن الصعب عليه كشف تلك الاقنعة التى ارتداها طوال هذه الفترة من الزمن .. وهى ! هل ستفهم ما يقول ؟ وهل ستقدر ما فعله مثل اشجان .. انها تختلف كثيراً عن اشجان فاشجان كانت غبية ، لا تفكر فى شىء سوى جمالها .. اما اشراش فهى شعلة من الذكاء ، كل ما فيها يجبرك على التأمل والتقدير .. فلم تجذبه امرأة قط فى حياته قدر ما جذبته إشراش .. لحديثها الممتع الجذاب .. فأحياناً تشعرك بأنك أمام فيلسوفة حكيمة ، فتمنطق الأشياء

لتصدمك بالواقع الحقيقة ، وتارة تشعرك بأنك أمام شاعرة رقيقة ، فترسل كلماتها الناعمة لتنقلك بخيالها الواسع الخصب الى عالم فريد ، لم تعشه من قبل ، عالم من صنعها هى وحدها .. عالم ملیء بالحب والتضحية والايثار . كلها إحساس وحيوية .. ولأول مرة يشعر أدهم بالندم والتمنى ، ليتها كانت امرأته .. وترقرقت دمعة ساخنة ، دافئة ، كانت حبيسة سجنه الزجاجى ، تخنقها اهداب من الاسلاك الحديدية ، عيون لا تعرف الرحمة .. فلم تعرف الدموع طريقاً للهروب طوال حياته وكأنه مصاباً بجفاف العين .. ولأول مرة يطلق دمعة ويفك أسرها لتهرب من سجن القسوة والكبرياء والظلم .. كيف هربت تلك الدمعة ومن فك أسرها ؟

انه الحب .. الذى أطلق سراحها .. لتلسعه وتحرقه كماء يغلى كالحميم .. ألهذا الحد يشفق على اشلاش من الحقيقة ؟ انها حركت بداخله الرحمة .. التى لا يعرفها إلا ذوو القلوب المحبة

وتمنى لو يستطيع العودة ويقول قول الكافرين : هل من كرة حتى اصحح ما فعلت ؟

الحزن .... الندم ... الشفقة ... كلمات لا توجد فى قاموس حياته .. ولكن ما باله يشعر بالعجز أمامها .؟ انها تقهره ، تتحداه ، وتجعله يرى نفسه على حقيقتها .. قزما ضئيلا أمام هذا الطور المتعالى من الحب والذكاء .

وأصبحت كل مهمته هى محاولة ابتعادها عن التفكير قدر المستطاع .. فيشغلها معظم الوقت .. يسير معها كرفيقها بين الحيوانات . ومما زاد من تعلقه بها .. هو مشاركتها فى كل شىء .. ولكنها لم تنس قضيتها بعد .. والبحث عن الحقيقة .

تسير بجواره كفتاته ودميته التى يتباهى بها وسط الحشد الهائل من الحيوانات ، تضع على رأسها القبعة الخضراء .. وتمسك بعصا خضراء اللون آيضا .. وتعقد عليها وشاح شفاف وتبدو داخل ردائها الأخضر الواسع الفضفاض كفراشة

جميلة ، تدور حوله .. وتعلو ضحكاتها الصاخبة وهو يداعبها .. كان كمن يكفر عن اثمه .

نسى ادهم ما يتمناه طوال حياته .. وانها تجربة حياته ، محاولا بذل قصارى جهده لإسعادها وأبعادها عن الهواجس التى كثيراً ما تشرد فيها .

لماذا يخاف عليها كل هذا الخوف ؟

مسألة لم يطرحها تفكيره بعد .. اذ لم يتوقع أبداً أن يكون الكائن الجديد بمثل هذا الذكاء والرقة والانوثة .

واصبح عالمها منحصراً فى ادهم .. لم تأكل الا معه ، ولم تتحرك الا بجواره ، ترتدى ما يحب وتخلع ما يسوؤه ، وكفاها دون الآخرين .. ملأ حياتها .. واقتصرت أحاديثها عليه .

ثار أهل الغابة على كل ما يحدث أمامهم .. واجتمع القوم يتشاورون فى الأمر .

قال الأسد :

ـ ان الدماء تجرى فى عروقى كلما رأيتها

تتأبط ذراعه ، وتسير معه أمامنا ، يلاطفها ، ويلاعبها .. وأبوها موجوداً يرى كل ذلك راضياً ، لم يستطع ردها عن هذا الوغد .

صاح الدب قائلا :

— نخطفها منه .. واذا حاول الاقتراب منها نقتله .

فقال الأسمر وهو كائن ناتجاً من تلقيح الاسد بالنمرة :

— في البداية ننذرها .. وننصحها بالابتعاد عنه واذا أصرت على موقفها ، نقول لها حقيقته ، وانه سيفعل بها مثلما فعل بالمرأة الاولى التى ذهب بها الى حيث لا ندرى وعاد وحيداً ، لقد استبدلها رغم أنها كانت تحبه وتحسن رعايته .. ونقول لها كل شيء لتعلم أن مصيرها لن يختلف كثيراً عن مصير تلك المرأة ، وعندئذ ستعرف ان هذا الكائن لا يحب الا نفسه ولها حرية الاختيار بعد ذلك .

صاح سنوسى :

ــ ويحكم .. لماذا كل هذا العداء لهما ؟ الأنه يؤثرها علينا ويغدق عليها ألواناً من الرعاية والمحبة تحقدون عليها ؟

وامتلأت عيناه بالدموع وهو يقول :

ــ انها ابنتى .. ولن ادعكم تمسونها بسوء أو أذى .

فقال الأسد :

ــ ألم يخجلك قول انها ابنتك .. لو كانت حقاً ابنتك لما رضيت لها هذا المصير .. مصير ونهاية المرأة الاولى .. وسيحرمك منها مدى الحياة .

بوحشية وغيرة يسأله :

ــ كيف ترضى بذلك ؟ اذا لم يكن لك حولا ولا قوة ، فدعنى أتصرف لأدفع عنها الأذى .. وزأر زأرة عنيفة وهو يقول :

ــ لا تنس اننى هنا وحش الغابة وسيدها .

بخضوع قال سنوسى :

ــ واذا لم تخضع لنا .. هل نأخذها عنوة ..

لتعيش بيننا انها أصبحت تأنفنا .. فهى راغبة عنا .. زاهدة فينا .

صاح الأسد :

– اذن نقتلها .. من يخرج عن طوعنا لابد من قتله ودفن عاره .. اننى لا أحتمل رؤية ما ترونه .. دمائى تغلى كالحميم.

وبسرعة قال سنوسى :

– اياك والاقتراب منها ، وراح ينتحب بضعف .. وتقطعت كلماته وهو يقول :

– إنها ابنتى .

نظر أهل الغابة بعضهم الى بعض .. وأخذتهم الشفقة فتركوه وحده ينتحب ، لعل دموعه تغسل هذا العار الذى تمثل لأهل الغابة .

* * *

خرجت اشاش فى الصباح .. ونزلت لأهل الغابة .. وقفت أمامهم .. تدعوهم للفطور قائلة :

– هيا .. لقد اعددت لكم الغذاء .

رقد الأسد وكأنه لم يسمع شيئاً .. وتلفت الثعلب للخلف ، بينما تحرك الدب والآخرون الى الخلف مبتعدين عنها .

تقلصت تقاسيم وجهها ، وارتسمت خطوط الغضب عليها ، فاذا بها تقول بصوت جهور ى :

ـــ ماذا بكم ؟ الا تسمعون ما قلت ؟ انى آمركم بالتقدم هنا .

لم يتحرك أحد منهم فيما عدا الأسد .؟ فخشى سنوسى عليها وملأه الرعب .. فاقترب منها وربت على كتفها قائلا :

ـــ دعيهم الآن يا اشاش .. انهم متعبون .

تنفض يده بعنف وهى تصرخ فى وجهه قائلة :

ـــ كلا لن ادعهم .. اتساعدهم على ذلك ، ان تدليك لهم هو الذى يجعلهم يعصوننى .. دعنى وشأنى .. وسأعرف كيف اعاقبهم .

ينظر إليه الأسد وقد اتسعت عيناه لينبعث منهما نيران الغضب وكأنه يسأله عدم التسامح

والتهاون معها .. محذرا اياه من التكتم واخفاء ما يرغبون .

كل ذلك الحوار والتنبيه والتحذير كان من خلال نظرات الاسد وتبعتهما نظرات الشفقة من سنوسى وكأنه يسترحمه .. فتقهقر الأسد للخلف .. ولكن اشاش ظلت تثور وتضرب الهواء بعصاتها وهى تقول :

– لماذا ينظر كل منكم للآخر هكذا ؟ أهناك شيء تخفيانه عنى ؟

التزم الجميع الصمت .

تقترب منهم .. فيخفق قلب سنوسى .. ويقترب منها وكأنه يحميها ، وكلما حاولت توجيه كلمات لأحدهم .. وقف أمامها ليحول بينها وبينهم .. فسألته بعصبية :

– ماذا بك يا سنوسى ؟ أتحول بينى وبينهم ..؟ ألا تعرف ما الذى يمكن أن أفعله بكم جميعا ؟

شعر سنوسى بالحزن لأنها أضافته ضمن قائمة

رعاياها ونكس رأسه في الأرض .. فنظر إليه الأسد وكأنه يقول له تفضل اجن ثمار تربيتك وتدليلك لها .. ثم تقدم وقبل أن يهمس بكلمة قال سنوسى :

– أرجوكم .. أعطونى فرصة لأوضح لها كل شيء . وسكت الجميع .

وقفت حائرة .. وسنوسى يمد كفه ليلتقط أحد الأفرع ويقطعها بعنف .. وهو يسير حزيناً .. يفكر من أين يبدأ ، المناقشة ؟ وهى تلف خلفه يمينه وشماله متسائلة :

– لماذا كل هذا العداء ؟ انهم يكرهوننى ؟

وقبل ان يزداد انفعالها قال ملخصاً لها الحكاية فى كلمتين :

– انهم راغبون فى قتلك .

وقعت منها العصا .. وهى تردد بخوف وفزع بعد أن شعرت بأنها تهوى من سطح عال ، لتسقط على الأرض وتردد :

– قتلىّ ؟ لماذا ؟

– لأنك خائنة .. تركتيهم من أجله .

– من أجل من ؟ ادهم ! أليس كذلك ؟

– نعم .

– ماذا يريدون منى ومنه ؟ وعلام تغبطوننى .. انكم لا تعرفون قدر العذاب الذى اعيشه .. انه مصدر عذاب لى

– اذن فالابتعاد عنه رحمة .

– ليته بوسعى .

– بوسع من اذن ؟ ولماذا يصعب عليك فراقه ؟ أتحبينه ؟

– كيف لا احبه وهو الذى منحنى الحياة .. أيستطيع أحد منكم ان يمنحنى هذا القدر الهائل من الحب والرعاية ، انه لا يتركنى لحظة بمفردى .

– مثلما كان يفعل معها .

– مع من ؟ من هى ؟

افترش العشب .. وهو يقص عليها حكاية امها فقال :

ـ كانت تشبهه لحد كبير .. الا انها كانت جميلة جداً ، وكانت رأسها مثل رأسك ، وتقريباً فى جسده .. الا أن هناك بعض الاختلافات البسيطة .. ولكنها كائن جميل جداً ، ليس كمثله شىء .

قالت بخجل وبغرور الأنثى :

ـ أجمل منى ؟

ـ جسدها أجمل من جسدك .. أما وجهها فكان مثل وجهك تقريباً ... عاشت هنا .....

قاطعته :

ـ معكم ؟

ـ نعم .. معنا .. ولكنها كانت مثله تفهمنا بالإشارات .. لأنها لم تجد لغتنا .. وكانت ترعاه وتحسن مثواه .. ولا تفارقه لحظة ، حتى ذهب بها الى حيث لا ندرى .. ثم عاد بك صغيرة الحجم .. وما أتذكره .. هو أنه كان يخفيك ضمن امتعته .. ونحن نخاف عليك من نفس المصير المجهول .

— ولم تعد تلك الجميلة مرة اخرى .

— كلا طبعاً لم تعد تلك الحسناء .. ولم نرها حتى الآن .

— الغريب .. انه لم يحدثنى عنها طوال حياته .. أكان يكذب علىّ ، عندما قال لى إننى أجمل من رأت عيناه .. واننى أجمل كائن فى الكون ؟

— ليس ذلك هو المهم .. والمهم الآن هو كيف نتجنب غيرة قومك .. وحقدهم عليك .. فأنا اخشى أن يقتلونكما .

لم تعط إش‌إش هذه المسألة أية إهتمام ، وشردت فيما قاله .. بينما استطرد سنوسى فى حديثه .. وعبثاً تحاول التركيز لتعى كلمة واحدة مما يقوله لها .. واردف يقول :

— من الممكن أن تسامرينه ، وتجلسين معه ولكن فى غير وجودهم .. والا تتعالين عليهم .. لأنهم قومك .. أليس كذلك ؟ وقلوبهم صافية ..

سريعة الغفران .. أتعرفين لماذا ؟ لأنهم يحبون ، ومن يحب يغفر ويسامح .. فهم لا يريدون التفريط فيك ومن يملك القدرة على الحب والعطاء يملك القدرة على الصفح والمغفرة ، لأنهم يحبونك ولا يستطيعون الاستغناء عنك ...

واستطرد سنوسى يقص عليها شدة قلقهم عليها ، وهى مستغرقة فى البحث عن الحقيقة .. وعما يخفيه عنها أدهم من أسرار .. قلبها يحدثها بأن تلك الحقيقة مختبأة هناك .. فى هذا المكان المغلق ... أتصارحه برغبتها فى الدخول فى تلك الغرفة ؟ أتسأله عن سر الفاتنة التى كانت تعيش بجواره ؟ واين ذهب بها ؟ بل أين هى الآن ؟ ولماذا لم يحدثها عنها طوال هذا الوقت ؟

وتداخلت الاشياء فى بعضها .. والقت بجسدها على الفراش فى محاولة عابثة النوم .. وعندما اقترب أدهم من غرفتها ليتسامر معها كعادته اثناء الليل .. نقر على باب غرفتها باصبعه ،

فلم تقفز كعادتها لتفتح له الباب .. وجاءه صوتها خافتاً .. يكاد ينبعث من وتر ضعيف قد أوشك على التمزق .

— تفضل .

فتح الباب بتوجس .. واسرع نحوها .. فاذا بها لم تستطع النهوض من رقدتها .. وكأنها مريضة .. فقال لها :

— ماذا بك يا حبيبتى ؟

اخفت وجهها عنه .. لم تقو على النظر اليه بعد ما تأكد لها كذبه .. وخداعه .. فأمسك رأسها وهو يحولها ناحيته ويقول :

— اشاش .. ماذا بك ؟ ان رأسك تشع حرارة ما أصابك يا حبيبتى ؟

وكانت الأرض قد اهتزت من تحته .. فأخذ يجرى بسرعة يحضر الأدوية ويمسك بالترمومتر.. ويعد أجهزة الضغط .. وأحست إشإش أنه من العسير جداً ان تخفى عنه شيئاً .. ولكن لابد من اخفاء ذلك .. وقاومت قلبها مقاومة هائلة

لئلا تفصح عما يدور بنفسها .. ولم تنطق بكلمة ، وظل ادهم بجوارها ليل نهار ، تحاول دفعه عنها ولكنه يرفض بإباء وشدة .. وأصبحت تأنس الى سنوسى اكثر من الماضى ترتمى فى احضانه لتجهش بالبكاء وكأنها تلقى بالحمى عليه بالحمل الذى فوق عاتقيها .

ويندهش ادهم .. ان جسدها لم يستجب لأدويته ، مما يدل على معاناتها النفسية التى يخشى أن تصل للاكتئاب .. حاول اخراجها من تلك الحالة بشتى الطرق دون جدوى .. ماذا يفعل معها وقد اغدق عليها رعاية دونها رعاية الأم لابنها ، ان طريقة المعاملة الجديدة تحيره ، فلماذا تتجنبه ؟ أتراها حقاً تفعل ذلك عمداً ؟ أم أن هناك شيئاً آخر لا يفهمه ؟ أهكذا ؟ من الممكن أن تتحول عنه دون علة أو سبب ..؟ ان كل شيء فيها يقول له ابتعد عنى .. فأنا لا أحتمل رؤيتك .. هل يصدق ما يراه ؟

وبذل ادهم قصارى جهده فى البحث

عن سر تحولها عنه .. دون جدوى ، وعندما استعادت اشراش صحتها وقد انطفأ فيها شعاع الحياة .. وحل مكانه قلق التفكير المدمر .. عزمت أمرها على حزم هذه المسألة .. وشعرت بضرورة ملحة لاقتحام الغرفة المغلقة .. وتظاهرت أمامه بأنه لا شيء هناك حتى تسنت لها فرصة فتحها .

ونجحت اشراش فى الخروج من هذا الطور .. ولكن ازدادت محاوراتها حدة .. سألها :

— أرى الحيوانات متحولون عنك هذه الأيام .. أحدث بينكم ما يعكر صفوكم ؟

— كلا .. فكل ما فى الأمر انهم يخافون عليّ .

— ممن !

بجرأة وتحد أجابت :

— منك .

سألها بابتسامة ساخرة :

11—439

ـ منى أنا ! مستحيل .. فلا يوجد انسان قط على وجه الأرض يحبك ويخاف عليك مثلى.

اتسعت عيناها .. وكأنها تقول له .. إلى متى تستبيح خداعى ؟ ألن تمل هذا الدور ؟ ان هناك شيئا .. بل وأشياء خطيرة من جراء تلك المسرحية التى لا أعرف لها بداية .

فقال :

ـ اش‌اش .. أين شردت ؟ وفيم تفكرين ؟

ـ فى أقوالهم .

ـ ماذا يقولون ؟

ـ ثائرون على أوضاعنا .

لم تعجبه صيغة الجمع التى تتحدث بها فردد قائلا :

ـ أوضاعنا ! أوضاع من ؟

تجيبه بتحد :

ـ نعم أوضاعنا .. أنا وأنت .. إنهم يتحدثون عنا .. يهمسون بأقوال ليس لها معنى ..

باختصار انهم يخافون عليّ منك ، ويعتبرون قربى منك خيانة دونها الموت .

ثم قالت بخجل :

— وعليك وضع حداً لأحاديثهم .

وبطفولة تقول :

— علينا أن نفكر فى حل لعلاقتنا .

ضحك ضحكة عالية وهو يستمع لكلماتها النقية الصافية ، الخالية من كل مأرب ومطمع :

— علام تضحك ؟ اننى اخشى مجرد النظر اليهم .. يجب أن تكون حاسما وتقطع تلك المهاترات التى تلتصق بنا .

دار بمقعده الوثير تجاهها .. وقال متعجباً بابتسامة هادئة :

— أى مهاترات ؟؟

اضطربت واحمر وجهها خجلاً وهى تخفض بصرها إلى الأرض وتهمس :

— انهم يسيئون الظن بك .

بانفعال يسأل :

— كيف ؟

— يتحدثون عن علاقتك بى ، وعلينا أن نخرس ألسنتهم .

ضحك ضحكته الساخرة .. وانبعثت رناتها داخلها لتضغط على قلبها بقسوة وبحدة .. وقال لنفسه ما الذى اسمعه ؟ اشراش تراودنى عن الزواج .. لتقطع السن المتحدثين عنها !

واستمرت ضحكاته القوية .. وهو يدور بمقعده ثم قال :

— انهم يتحدثون عنا ! فماذا يقولون ؟

— يقولون انك تؤثرنى عليهم .. وانك تبعدنى عنهم ، وانهم شديدو الغيرة على كما ان أبى أوشك على ...

قاطعتها ضحكته .. بعد أن فقد قدرته على التحكم فى نفسه .. وقال :

— وأبوك ماذا به ؟ هل هددك بالذبح أو القتل اذا لم ....

ولم يستطع اتمام جملته لفرط ضحكه الهستيرى ، وكانت إشإش تستقبل ضحكاته بضيق وتشعر بالاختناق ، ولم تفهم تلك الجملة التى حذفتها سخريته .. سألته بسذاجة :

— ما الذى يضحكك كل هذا الضحك ؟

— لاشيء .. إذهبى إلى غرفتك واستريحى يا اشاش .

— ماذا أقول لهم ؟ بماذا أجيبهم ؟ وكيف سنتصرف ؟

تعاوده حالة الضحك الهستيرية من جديد .. فتقول وقد فاضت بها مشاعر الضجر :

— أنا لا أفهم ما يضحكك حتى الآن ؟

— لأنك مازلت صغيرة .. وجذبها من معصمها متجها إلى غرفتها ، ثم ارقدها على الفراش .. وشد عليها الغطاء .

فسألته بغتة وهى تدفع الغطاء بيد وتمسك به بالاخرى :

ـ ماالذى يمنعك من النوم معى ؟

صفعه سؤالها .. لطمة قوية لم يستعد لها .. رغم انها ليست المرة الأولى التى تسأله فيها هذا السؤال .. ولكنها الآن كبرت ونضجت .. فسؤالها أصبح مختلفاً عن المرة السابقة .

* * *

الفصل السابع

نظر اليها نظرة ثاقبة .. فهى لم تعد طفلة ليقول لها أقواله السابقة .. لقد أصبحت انثى .. لا تفهم شيئاً عن رغبات الانثى الا بفطرتها .. وعندما شعرت بحاجاتها الماسة اليه سألته ذلك بكل بساطة . تنظر حولها .. تجد أن كل فرد من الحيوانات له وليفه .. فأين انثاه ؟ مؤكد أنه لا يوجد سواها .. وأين وليفها ؟ بلا شك انه هو وليس حيواناً غيره .

فاذا كان هو الملك .. فهى أيضا الملكة !

ولكن لماذا يبتعد عنها ؟ ورغم أنه لا شاغل لديه سواها فإنها تشعر بابتعاده عنها ، وهروبه الدائم منها اثناء النوم .

تعيد على سمعه السؤال من جديد وهى تضغط على كلماتها :

ـ لماذا لا ننام معاً .. كما نأكل معاً ؟ لابد أن أفهم . فلماذا كل شيء نفعله سوياً وعندما نأتى لمسألة النوم كل يصبح لحاله .. فتنام وحدك .. وأنام وحدى .. لماذا ؟

أجابها بوقار وحكمة :

ـ لأننا لسنا مثلهم .. هل نحن نشبههم ؟

قالت :

ـ نعم انا أشبههم .

ثم أرتفع صوتها بحدة وهى تقول :

ـ ولكننى أشبهك أنت أكثر .. فرأسى لا تختلف عن رأسك .

. شعر بخطورة الوضع .. على حياتها .. وانها لو ظلت تفكر بهذه الحالة سيفقدها فى أقل وقت ممكن .

يفكر .. كيف يقضى على تلك المقارنة الدائمة .. بينها وبينه ، وبينها وبينهم .. كيف

يمنع هذا الحوار الدائم مع نفسها ؟ شعلة من التمرد ستنفجر بعد قليل .. يحاول ابعادها عن ذلك التفكير بسؤاله :

— ألا تشعرين بقربى منك ؟

ترسل له عيناها أشعتها الحادة وهى تجيب :

— لم أصل لشىء !

يسألها بحنان :

— أى شىء تسعين إليه ؟

— أنا .. لماذا خُلقت فى هذه الصورة ؟ ولماذا أنا .. أنا وحدى فقط دون سائر المخلوقات ليس لى مثيل والغريب أننى الوحيدة التى أتحدث لغتين ، فأخاطبهم وأخاطبك .. ولماذا أنت لا تتمكن من مخاطبتهم ، لماذا وجهى مثل وجهك وجسدى ليس مثلك ؟

وتردد قائلة :

— أحيانا أسأل نفسى أين أمى ؟ أم أننى الوحيدة التى اتت الى الحياة بطريقة مختلفة عن ناموس الطبيعة ؟

ويأتى صوتها منتحباً وهى تقول :

ـ أريد أن أعرف الحقيقة وأنت الوحيد فى هذه الحياة الذى يعرف كل شىء ، فلماذا لاتريحنى ؟ ألا يسوؤك تعذيبى ؟ إننى أعانى وحدى .. ولا أحد يشعر بى .. لم أستطع النوم ، لماذا لم اكن مثلهم فأحيا بينهم هادئة ، أو أكون مثلك فأعيش معك ؟ إننى حائرة ... من أنا ؟ ولمن سأكون ؟

وتردف بخوف قائلة :

ـ مستحيل تدعنى وتتركنى لهم .. فأنت تعلم جيداً أننى لست مثلهم .

تمزقه كلماتها .. يقف عاجزاً .. مكتوف اليدين .. فيضمها بين ذراعيه ويقول :

ـ لماذا تجهدين نفسك بهذه الصورة ؟ أنا لا أستطيع رؤيتك بهذا الشكل ؟ أنت يجب أن تسعدين بقدرتك على التحكم فى الغابة .. أنت أعظم منهم ومنى شأناً وادراكاً وذكاء .

توسدت اشاش صدره .. بعد أن شعرت

بالراحة والامان فى أحضان الغدر والخيانة ..

وربت على ظهرها بيده وهو يقول :

— ارجوك يا إش‌إش لا تفكرى فى شىء ، واهدئى ولا تخافى فأنا بجوارك .. ولن اتركك أبداً .

* * *

يفكر ادهم ..

كيف يخفى عنها الحقيقة ؟

انه لم يعد بحاجة لنجاح هذه التجربة التى تؤرقه ، قدر ما أصبح بحاجة إليهاهى .. انه يريدها وحسب ، سيعيش من أجلها .

ولكن ! اذا حدث وعرفت الحقيقة هل ستقبل المعيشة معه ؟ مؤكد انها سترفض .

واستحال عذابه غراماً دونه عذاب الخلود .. ورغم أن الحب يصنع المستحيل فإن قلبه عجز عن اصلاح ما افسده عقله .

اقترب سنوسى منها فى الصباح وكان ادهم قد غادر المكان إلى المدينة ، ليحضر احتياجاته ،

وربما يتغيب ثلاثة أو أربعة أيام ... واقتربت اشاش من الغرفة المغلقة .. وعاونها سنوسى على فتحها ، بعد إصرارها على ذلك .. وقفت وسط الغرفة وسنوسى يتبعها .. لا يفهم عما تبحث ؟

واكتشفت إشإش وجود صوراً ومجلات وجرائد .. عبثت أصابعها بين الأوراق .. وتعلقت نظراتها بالمرأة الجميلة التى تتوسط الحائط .

تحرك سنوسى متجهاً الى تلك الصورة وراح يقبلها بحزن وأسف على فقدها .. فخلعت اشاش الصورة وسألته :

ـ من هذه الحسناء ؟

ـ انها المرأة التى كانت تسكن معنا .. وسبق وان حدثتك عنها .

تحدق فيها وهى تقول :

ـ كم هى جميلة يا سنوسى .

وقربت الصورة من وجهها ونظرت الى المرآة وقالت :

ـ ألا ترى أننى أشبهها لحد كبير ؟

– نعم .

– ولكن لماذا يخفيها عنى ..؟ ولم يحدثنى عنها حتى الآن ؟

وفتحت المجلات .. وتصفحت أوراقها فرأت صوراً عديدة للنساء وجوه مختلفة الجمال .. أين يعيش هؤلاء ؟

وراحت اناملها تبحث بين الأوراق عن حياتها ... وفجأة أبصرت عيناها تلك الصحف التى تتصدر صفحاتها الأولى تلك الحسناء وقرأت العناوين التالية :

عالِم يضحى بزوجته مقابل كائن مجهول.

وسام وجائزة .

البحث عن العالِم الهارب .

جريمة عالِم .

وعديد من الصور والمعلومات عن تفاصيل حياته وابحاثه الخاصة .. وعلاقته بالكائنات المتشابهة .. وابشع ما واجهته فى هذه الأوراق هى تجربة حياتها .. منذ بداية التفكير فيها

وحتى هذه اللحظة .. وتسمرت عيناها على صور النساء والأطفال ، وعرفت الحقيقة ..!

كانت انفاسها تتلاحق وهى تقرأ .. أهدابها ترتعش .. ويدها لا تكاد تقوى على التماسك .. وأخذت قواها تخور .. وألقت برأسها على الأوراق وكأنها تنفض هذا الحمل الهائل عن عاتقيها .

أقترب منها سنوسى .. ورفع رأسها .

كانت كمن يصارع الموت .. وهى تحاول أن تفتح عينيها .. ثم نهضت وهى تضع كفها فى كفه لتتوكأ عليه .

وقفت أمام المرآة .. تنظر وتحدق إلى الصورة المشوهة التى تعكسها المرآة .. تتسع عيناها وتتنهد .. ثم تصرخ بقوة غير مصدقة تلك الحقيقة .. تنفعل .. وتحطم المرآة .. فتصاب اناملها بالجراح لتدمى .. وتخفى وجهها بين أحضان سنوسى الذى حماها من الموت واخرجها من الغرفة .. واسرع بتضميد جراحها .. وتوالى بكاؤها الهستيرى .

حاولت ان تتكلم فلم تسطع .. مر يومان .. وهى تحاول فهم هذه التجربة .. وأين هى من هذا العالم ؟ وكيف ستواجه مصيرها ؟

وحاولت ان تجمع اشلاءها .. وقامت باغلاق الغرفة بعد أن وضعت كل شيء فى مكانه . واخفت المرآة .. وألقت بها بعيدا وتماسكت .. وعزمت أمرها على أنها لابد أن تكون قوية ، حسبها فى ذلك ان تعرف غاية لعبته .

وتتراقص امامها الكلمات والحروف التى قرأتها عن حياتها ، وكيف استخرج السائل المنوى من سنوسى ليلقح به امها ، وكيف استطاع التضحية بامها من اجل تجربة محتمل فشلها .

كلما تذكرت خطته وجريمته شعرت بان كل شيء يهتز لديها ؟

الآن فقط عرفت لماذا سنوسى هو اقربهم لديها ؟ وعزمت امرها على الرقاد بين الغصون والشجر والعودة لعشيرتها القديمة .. وتركت البيت

لترقد فوق الشجر ، تفكر وحدها فى مأساتها التى لامخرج لها منها .

وعندما عاد ادهم .. بحث عنها .. لم يجدها ، راح يفتح غرف البيت غرفة .. غرفة .. وكلما رآها فارغة ازداد اضطرابا .. حتى كاد يجن .. ونزل إلى الحديقة .. صاح بأعلى صوته :

— سنوسى ...... أين ذهبت ؟

جاءه الرد من فوق الشجرة :

— عمن تبحث ؟

تنهد وهو يرفع رأسه ناظراً اليها ثم قال :

— اشاش ! ماذا تفعلين عندك ؟

— كما ترى .. بى حاجة للنوم .. ولم أشعر بالراحة الا هنا .

— اشاش .. هيا معى .. ولا داعى لهذا المزاح السخيف ، لقد احضرت لك اشياء جميلة من الخارج .

نظرت اشاش إلى لهفته .. وابتلعت حقدها عليه وقفزت أمامه .. فوضع يده على معصمها

ليحيطها بذراعه وهو يسير ، فنفضته بعنف وكأنها تنهره .. مما ادهشه .. ولكنه لم يعلق على ذلك .

اخرج عدة ازياء رائعة الجمال .. ولكن مابالها لم تبهر بها كعادتها وسألته :

— من أين اتيت بهذه الأشياء ؟ انك قلت من الخارج ! فأى خارج تقصد ؟

لم يجبها كعادته .. وسألها :

— ماذا اعددت لى اليوم من غذاء ؟

نهضت لتعد الطعام بصمت دون أن تجيب عليه .

شعر بتحولها عنه .. شدها من يدها وهى تسير :

— إش إش .. ماذا بكِ ؟ هل هناك من ضايقك ؟

بسخرية تجيب وصوتها تقطعه العبرات :

— وهل يستطيع أحد فى العالم أن يصيبنى

بشيء ما ، وأنا سيدة الكون .. وأجمل كائن في الوجود .

يقترب منها :

ـ إش إش .. ماذا بكِ ؟

تنهمر دموعها .. وهي تخفي وجهها عنه .. يمسك رأسها لينظر اليها .. فتغلق أهدابها لأقصى ما تستطيع وكأنها لا تقوى على النظر إليه .. ويرى دموعها تسيل على وجنتيها .. فيضطرب ويتألم وهو يسمعها تقول :

ـ أرجوك دعني .

تركها وهو يفكر ماالذي يمكن أن يحولها عنه بهذه الطريقة المفزعة ؟

وتدخل اش اش ـ المطبخ ـ وهي تجفف دموعها لترتدي قناع الاستسلام .

يتناول الطعام .. يتظاهر بأنه يبتلع الطعام ، وتتظاهر هي بأنها على ما يرام .. وتدخل غرفتها .

وفي المساء كعادته يقترب من مهدها .. فتدير رأسها ، لتجفف دموعها .. ويرى الوسادة

مبتلة بالدموع .. قال لها بصوت أرقه الجهد وهو يمسح بكفه على رأسها .. فتنفض كفه وتنهض نصف رقدة لتسمع كلماته الخائرة :

— اشراش .. حبيبتى .. هل حدث منى ما أغضبك ؟

— كلا وهل يخطئ العلماء ؟

— أرى فى لهجتك سخرية ومرارة .. ماذا بك ؟ صارحينى ، أهناك من تأنسين إليه غيرى ؟

— كلا .

— لماذا يا اشراش .. ماذا فعلت لأنال منك كل هذه العقوبة ؟

— ليته بوسعى عقابك !

— ماذا تقولين ؟

— لا شىء .. أقول أن هناك من أأنس بهم واحبهم .

— وأنا ! أتكرهيننى ؟

نظرت اليه نظرة تدينه .. تقول له كيف تجرأت وفعلت ذلك ؟ ثم فاجأته بسؤالها :

ـ أين امى ؟
يتلعثم :
ـ قلت لك مراراً انها ماتت اثناء ولادتك .
ـ وأنا اصدق قولك .. لأنك لا تكذب أبداً .
ثم تلاحقه بسؤالها :
ـ هل كنت تحبها ؟
بتعجب يردد :
ـ أحبها !
ـ نعم .. لقد عرفت انها كانت جميلة جداً ، وعاشت معك طويلا ، أليست هى المرأة التى كانت ترعى قومى قبل قدومى ؟
ابتلع أنفاسه كمتهم يبحث عن ادلة لبراءته دون جدوى فقال :
ـ من قال لك هذا الحديث ؟
ـ الذين لا يكذبون .
بهت ... وهل يتذكر الحيوانات الأشياء ؟ هل استطاعوا أن يقصوا عليها حياته ؟

أيعقل هذا ؟
فسألها :
ـ هل قالوا لك كل ذلك :
دارت حوله وهى تنفض شعرها للخلف :
ـ بل واكثر من ذلك .
نهض من جلسته وأخرج من جيبه علبة سجائر .. وأشعل سيجارة وراح يفكر .. كيف .. يصدقها ؟
سألته وهى تقترب منه :
ـ أريد معرفة كل شيء ممكن ؟
وقبل أن يجيب عن سؤالها تبعته بسؤال آخر :
ـ هل كنت تحبها ؟
يتذكر اشجان .. فيجيبها بصدق :
ـ أخترتها .
ـ يعنى لم تحبها .
ـ لماذا ؟ فما الفرق ؟
ـ لأننا حين نحب لا نختار ...
يكمل جملتها قائلا :

ـــ وعندما نختار لا نحب .

تمنت في تلك اللحظة لو استطاعت مواجهته .. لتقول له وهل تعرف أنت الحب ؟

ولكن سبقتها عيونها .. فأسفرت عما تخفيه .. كان يفهمها ويفهم نظراتها الثاقبة الحادة .. ويجيد ترجمتها .. تسأله :

ـــ وهي .. أكانت تحبك ؟

ـــ كانت لا تفكر في شيء الا في جمالها .. كانت غبية .

تردد بخفوت :

ـــ غبية العقل والقلب معاً .

ـــ وهل يمكن للانسان أن يكون غبي القلب ؟

تقول مؤكدة :

ـــ بالطبع ممكن .. فالغباء لا يصيب العقل وحده بل يصيب القلب أحياناً .

تعجبه آراؤها .. فيستمر معها في الحديث :

ـــ ومتى يصاب القلب بالغباء ؟

— عندما يشد صاحبه لطريق لا امان فيه ولا سعادة .

يبتسم وهو يقول :

— كم أنا احبك يا إشإش .

اغمضت عينيها بشدة وكأنها تأنف سماع تلك الكلمة منه .. وجرت بسرعة للخارج .

* * *

تغنى للحيوانات .. الجميع يلتف حولها .. سعداء بعودتها إليهم ، تشدو حزينة لحاكم ظالم مثله لا يعرف الرحمة .

ويقف ادهم ناظراً إليها من شرفة البيت .. وقد شعر بفقدها وانها تتعمد الابتعاد عنه .. وعندما يأتى الليل يذهب اليها ، يقول لها :

— ألم تشتاقى الىّ طوال هذه الفترة التى غبت عنك فيها ؟

ليتك ما غبت .

كانت تتمنى لو عاشت بقية حياتها مخدوعة .. لظلت ملكة الكون ولكن ماذا تفعل الآن وقد عرفت كل شىء ؟

هكذا هو حال الانسان ، يظل يجرى ويلهث بحثاً عن الحقيقة وعندما يكتشفها .. يكتشف رحمة حجبها عنه .

يجلس بجوارها :

ـ لماذا ؟ يجب أن أعرف ماذا حدث اثناء غيابى !

ـ لم يحدث شىء .. سوى اننى عرفتك اكثر .

ـ ماذا عرفت ؟

تصمت .. فيقول :

ـ وهل عرفت كم احبك ؟

ترفع عينيها .. تقول بسخرية :

ـ تحبنى !

ـ إش‌إش .. أنا لا أصدق أن الحيوانات

من الممكن أن تبعدك عنى .. انهم يغارون منك .. ويحقدون عليك .. لأنك ...

تقاطعه :

— أرقى منهم .. أليس كذلك ؟

— بالطبع أرقى .. هيا معى يا إش‌إش لنجلس معاً فى البيت .

— كلا .. اننى افضل البقاء هنا على الأرض .. وسأرقد هنا ، فوق الأعشاب لأتلحف الفضاء .. ما أجمل هذه الحياة .

— اش‌اش أتعصيننى ؟

— ولم لا ؟ أليس من حقى ذلك ؟ فأنت ليس لك علىّ أى سلطان .

— كيف ؟ وأنا الذى صنعتك .. لقد وهبتك كل حياتى تفرغت لك .. حتى أصبحت تملكين ما لم يملكه مخلوق على وجه الأرض .

— تقصد بشر .. انسان !

— أجل بشر انسان .

— وأنا .. بشر أنا أم حيوان ؟

ــ أنت لست بشراً .

وبعنف تقول :

ــ ولست حيواناً .

يحاول تهدئتها :

ــ اش.اس انت كائن آخر .. غير هذا وذاك .. أنت فصيلة جديدة ، كائن جديد .

وراح يطيل النظر إليها .. ولكنها أصبحت تخجل من هيئتها كإنسان مشوه .. فتوارت خجلاً فقال :

ــ ماذا حدث ؟ ومن أين عرفت كل ذلك ؟

جرت وتركته .. ودخلت غرفتها وأغلقت خلفها الباب لتنتحب ، وقف يقرع بكفه على الباب .. متوسلاً فتحه ، ولكنها أبت رؤيته وآثرت الوحدة والتفكير على انفراد .. وقالت ببكاء :

ــ أرجوك دعني وشأني .. اني بحاجة ماسة للراحة .

ولأنه يعلم مدى تعلقها بسنوسى أحضره وأشار له بفتح غرفتها .. وعندما همهم سنوسى

على الباب فتحت له ليرتفع بكاؤها ويملأ اصداء الغرفة .. فقال لها سنوسى :

— لقد قلت للحيوانات كل شىء وانهم مصرون على قتله .

رددت والدموع تغطى وجهها :

— قتله !

وأشارت بيدها بحركات متوالية مضطربة :

— كلا .. مستحيل .. أنا لا أستطيع رؤية ذلك .. اذ كيف يقتلونه ؟

وراحت تنتحب .. وارتفع عويلها ليهز كل شىء فى سنوسى وأدهم يسمع بكاؤها .. ولأول مرة يشعر بالمرارة .. ولم يستطع أن يعقل أن الحيوانات يقصون عليها تفاصيل كل شىء .. مستحيل . ولكن من أين عرفت ؟

يدخل غرفتها فى الصباح فيجدها جالسة على المكتب تقرأ .

— اما زلت تقرئين ؟

— ماذا أفعل اذ لم أقرأ ؟

ــ الغابة ليست بحاجة للثقافة قدر حاجتها للذكاء .

ــ ولكننى لست حيواناً وأنت تعلم ذلك جيداً .

يتجاهل قولها ثم يقول :

ــ أنت ملكة الغابة التى ستحكمينها بهذا العقل .

ــ رغم دمامتى .. فأنا أود أن أعيش هناك .

ــ دمامتك ! هناك ! أين هناك ؟

ــ عند البشر الذين يشبهونك .. لم تحرمنى هذا الحق ؟ ألم تعجبك حياتهم ؟

ــ نعم لم تعجبنى .. فالحياة مع الحيوانات اكثر هوناً ورحمة منهم جميعا .

ــ لماذا ؟

يجيبها بحزم .. وكأنه متهم يدافع عن نفسه .. فيقول :

ــ لأنهم لا يعرفون الغدر .. فلا يسرقون .. ولا يقتلون .

تضحك لسذاجة اجابته :

— ومن أجل ذلك هربت لتعيش هنا وحدك بعيداً عنهم !

— من أجل ذلك .

— هل كان لديك رحمة يوم جنيت على أمي ؟

صفعه سؤالها .. فقال مردداً :

— امك ! ماذا يدور بذهنك ؟ ومن قال لك كل هذه الأشياء ؟

— هذه الكتب .

— وماذا قالت لك أيضا ؟ أأذنت لك بالاطلاع على اسرار غيرك ؟

لقد فهم أنها صعدت للغرفة واطلعت على كل شيء .. فراحت تسرد له كل ما قرأته ، ثم قالت :

— من أجل أنانيتك سخرت الجميع حقلا لتجاربك .. حتى زوجتك .. وهربت بى لتصنع

معجزة تخرق بها ناموس الطبيعة ، مبروك يا دكتور .. لقد نجحت وأنا اهنئك من قلبى .

وراحت تردد له بذاكرة قوية عناوين تجربته وعنواين ما كتب عنه فى الصحف ثم ألقت عليه بوابل من الأسئلة :

ــ بكم ستبيعنى يوم عرضى ؟ مؤكد بثمن لم يتحقق بعد .. ألست اسطورة .. اسطورة حقيقية ..

حاول أن يقاطعها فمنعته قائلة :

ــ أرجوك لا تحاول إنكار شىء .. لأننى عرفت الآن كم أنت تحبنى وتخاف علىّ خوفك على فأرك وصيدك الضعيف الذى لا حول له ولا قوة .. وعرفت أيضا أن قلبك الكبير يسع قدراً هائلاً من الغدر لدرجة انه لم يعد هناك مكانا للرحمة .

قال والدموع تملأ عينيه :

— كفى يا اشاش .. ولا تعذبينى أكثر من ذلك .. فأنا لم أعرف أن الجنين سيأتى ...

قاطعته :

— ليتنى استطيع تعذيبك .. ما ترددت لحظة واحدة فى ذلك فكم من كائنات وعذبتها ، وليت الامر وقف على الحيوانات فقط ولكنه شمل البشر ايضا فنال زوجتك .. امى .

وتوالت صراخاتها .. ولم تستطع التحدث ثم قالت :

— قل لى ما هو مصيرى الآن ؟ كم من مرة وأنا أفكر .. أشعر بشىء مفقود داخلى ، وتمسك رأسها وراحت تدور فى الغرفة .. ليتنى بلا عقل لاسترحت الآن ! ولكن ماذا أفعل وعقل الانثى يجرى فى أوصالى ؟

— لماذا اعيش واحيا وقد حكمت على بالاعدام لقد حكمت علىّ هذا الحكم وأنت تعلم جيداً اننى بريئة ومظلومة .. ولكن ماذا

يجدى معك ذلك وقد سبق وان قتلت امى ؟

ــ اش‌اش أنا احبك .. ومنذ احببتك نسيت كل شيء .. التجربة والعلم وكل شيء سأدعه من أجلك .. لأعيش لك ولن يسوؤك شيء .. ولن يراك أحد .. وستظلين ملكة الغابة ورفيقة حياتى .

ــ حرصك عليّ ما هو إلا حرص طفل على دميته .. كم كنت افكر طويلا فى سر خوفك الدائم عليّ من الجو والمرض .. الآن عرفت السبب وما أبشعه وأفظعه سببا للحرص عليّ .

يقاطعها :

ــ لقد صنعتك من أجل ..

تقاطعه وهى تقترب منه وتتحسسه :

ــ اجل فأنت صنعتنى ولكن قل لى بحق السماء .. من صنعك أنت من خلقك فى هذه الصورة فأحسن خلقك ؟ انى اريد معرفته عله

بحسن صورتى ، لقد جعلك فى احسن تقويم ..
وجعلتنى فى أسوئه ، اننى اتمنى أن أكون فى
هيئة امى الحسناء لأعيش بين البشر مع الكائنات
الراقية .. ما ابشعك .. لقد أفسدت حياتى .

— اشاش

— دعنى أبحث عن خالق آخر .. أرحم
منك .

وتفيق كأنها تذكرت شيئا :

— قرأت عن الزواج .. وأنا من سأتزوج ؟

قاطعها والعبرات تقطع صوته :

— أنا يا اشاش أنا .

— أنت !

وتقول بشجن :

— أرجوك دعنى .. فبى من الشجن كثير ،
كم طالت علىّ الليالى وأنا أسأل ولا أحد يجيب ..
عندما يجتذبنى القرد بين أحضانه ، أشعر برقته
وحنانه علىّ .. ولكننى لا أستسيغه .. بالطبع ،

لأننى لست منه .. ولن يستسيغنى بشر لأننى لست منهم .

وتستعيد لحظات اقترابها منه .. ومحاولتها الدائمة فى الرقاد بجواره وتعلله المستمر بأن الكائن الراقى لابد وأن ينام وحيدا .

ـ اشاش .. أرجوك .. كفاك هذا القدر الهائل من العذاب أهدئى وتأكدى اننى لك .. ولن أدعك وحدك فى الحياة .. أنا أراك أجمل امرأة فى الكون .. حقيقى يا اشاش صدقينى .. ولا تعذبينى لأننى أحبك .. أتفهمين .. أحبك .

ـ أمازلت تستبيح خداعى .. ألا تخجل من نفسك ؟

ـ ما يخجلنى هو حبك .. انى احبك يا إشإش كيف اثبت لك حبى ؟

فتحت عيناها وهى تقول برجفة قوية وكأنها اوشكت على الموت :

ـ قبلنى .. قبلنى يا ادهم .

وبلا تردد .. ضمها ادهم بين ذراعيه ..

وأطبق على شفتيها بلهفة أعوام وأعوام من الحرمان ..
وشعر بها تخور بين يديه وتفقد توازنها .. وكأنها
تمنحه روحها التى كادت تنسلخ منها بين يديه ،
وفى الواقع لم تكن مشاعر الانثى هى التى أفقدتها
توازنها .. وانما هى مشاعر الاحتضار واستقبال
الموت .. برضاء عذب واستسلام .. وكأنها قررت
مفارقة الحياة .

* * *

دخل ادهم غرفة اشاش فى الصباح .. بعد أن طال رقادها سألته :

— ما الذى أتى بك الآن ؟

— اشتقت إليك .

— اشتقت الىّ أم تطمئن على بقائى .. اعلم كم أنتَ حريص على حياتى ، فحياتى غالية جداً لدرجة إخفائى عن العالم كله .

احتار ادهم اذ كيف يثبت لها انه أصبح لا مأرب له فى الحياة سوى إسعادها .. يقول :

— اشاش

— كيف سولت لك نفسك قتل امى ؟

— وجودك تطلب موتها .. وهذا هو قانون الحياة .. الوجود يتضمن العدم .. ثم ان هناك مئات النساء مثل اشجان .. ولكن لا توجد فى

العالم كله إلا إش إش واحدة .. ألديك شك في هذا ؟

– ولكن ما الذنب الذى اقترفته لتشوهنى ؟ من أجل نجاحك العلمى ؟

– وما ذنب المخلوقات الأخرى التى خلقها الله مشوهة ؟

تفزع لإجابته :

– كلا يا عزيزى .. لا تقارن صنعك بصنع الله .. فشتان بينك وبينه ، انك تفسد وتخرب فى الأرض .. وهو يصلح ويعمر .

– الله وهبنى القدرة على خلقك .. فأنت أرقى حيوان على وجه الارض .

– لا داع للخطأ أكثر من ذلك .. لأنك تعلم جيداً أننى أسوأ انسان فى العالم .

– مالك والبشر .. اننى أطور الحيوانات .. وليس لى أى مطمع فى تغيير البشر .. لأنهم كما قلت خلقوا فى أحسن تقويم ، ولن يوجد من هو أفضل منهم تقويماً .

ــ فلماذا اذن اسأت لسلالاته .. وحقرت من صورته وشأنه ، والأدهى من ذلك انك تتعامل معه كأحد حيوانات تجاربك . فهانت عليك امى وقد كانت زوجتك ...

قاطعها :

ــ امك .. امك ! ألن تكفى عن هذا الهراء اننى لم أتدخل فى موتها ، قد أكون سبباً فى ذلك .. لا أكثر ، ولا أقل .. فميعادها كان محدداً ومتوقفاً على ميلادك أنت .

ــ وماذا يجدى الآن هذا الحديث وقد انقذها الموت من رؤية هذه المأساة المضحكة .. انك أسأت للانسانية كلها بفعلتك هذه .. انظر لى ولك .. فلن ترى الاصورة طبق الأصل منك ولكنها مشوهة .. من صنعك .

ــ لنفرض انى أسأت لمظهره .. ان هذا أمر علاجه ميسر فى الأجيال القادمة ، ولكننى منحته قدرة لم تكن فى وسعه من قبل وهى اجادة لغة الحيوان .

— أى أن هدفك الآن انحصر فى إضافة صفة للانسان . ولكن اللغة يا دكتور ادهم صفه مكتسبة أكثر منها ناحية عضوية .. لأنها ممارسة أكثر منها تركيب .

ألم تعرف ذلك ؟ انك لو تركت طفلاً صغيراً بين الحيوانات لتعلم كل شيء منهم وسار على أربع مثلهم ولم ينطق بعد .. فما اتفه النتيجة وأبشع ثمنها .. حياة امرأتين .

شعر بضآلته فقال :

— إشإش ! هل أصبحنا خصمين .. أنسيت حبك لى ؟ فهذا الحب الكبير من الممكن ان ينتهى فى لحظة ؟ لمجرد معرفتك أن هناك بشراً .. وبرغم هؤلاء البشر سأعيش لك وحدك .. أليس ذلك حباً ؟ أرجوك يا اشإش لا تتركى الدهر يفسد ما بيننا ؟

بحزم وحزن تقول :

— ان سلطان الدهر لا تمتد يده الى الحب

الا اذا أردنا نحن أن يكون لهذا الدهر سلطان علينا .

ـ كونى معى اتخذ من حبك عدة أنازل بها حوادث الدهر .. وافسد عليه حوله وقوته .. كونى السلاح الذى اشهره فى وجه كل من يحاول تفريقنا .. كيف تتركينى وحدى ؟ اى مآرب لى فى العيش بعدك ؟

أستعبرت باكية .. وقالت بصوت حزين :

ـ ارجوك .. دعنى .. فأنا لن أعيش معك بعد الآن .

ـ اشاش ! كيف تصدرين علىّ هذا الحكم ؟ لم أعهد فيك هذه القسوة .. إنك تحكمين علىّ بالاعدام ......

وبقسوة وتحد قال ادهم :

ـ كلا لن ادعك وشأنك .. فأنت من حقى أنا وحدى ، ولن تتحركى الا بأمرى ، فأنت ملك لى .

وخرج ادهم وأوصد الباب خلفه بعنف وراح

يشعل سيجارة تلو الاخرى .. وترتعش يداه وهو يفكر فى محاولة لاجتذابها ، نحوه .. ويخونه عقله المتمرد .. فيعلن العصيان ويرمى به فى ، امواج متلاطمة من الخوف .. انها دميته التى صنعها بفكره ، وعقله .. قطته التى لن يستطيع الاستغناء عنها .

* * *

تمكن رجال الشرطة من العثور على الغابة الصغيرة بعد بحث دام اكثر من سبعة عشر عاما .. وساروا فى إتجاه البيت .

بدت اش‌اش أمام ادهم كالظل فى تحركه .. ليس لها ملامح واضحة كل شىء فيها ذبل وضوى .. وكثيراً ما تتغيب عنه مبتعدة متجاهلة وجوده .. كان كمن يطاردها فقال :

— إش‌إش إنى تعودت وجودك ، فأنت لى كل شىء ، ولا أتصور كيف يروق لك الابتعاد عنى ؟

تجيبه بصوت متهدج :

ــ امى كانت تفعل ذلك .. فماذا ربحت من جراء وفائها لك ؟ هانت عليك ؟

ــ امك لم تكن شريكة لى يوماً من الأيام ، كانت تافهة لحد الهوس .. ثم اننى لم احبها بعد ، ولكنك أنت شيء ، آخر .. أنت المرأة الوحيدة التى احببتها فى حياتى .. اشاش دعينى اتحدى نفسى والعالم بك .

ــ كيف ؟ أتود تعليمى الرقص والغناء والبالية !

ــ كلا .. لا تهزئى بى .. بل سأوضح للعالم كله انك قادرة على العيش فى العالمين ..

وشرد بخياله ثم قال :

ــ وسأعلمك الهندسة الوراثية .. وستجبرين العالم على احترامك وتقديرك .

ــ ما اخصب خيالك العلمى .. هذا الخيال الذى سيفسد الكون بما فيه .. ألم تشعر بأن عقلك

هذا المتمرد انجب مأساة متحركة عليها أن تواجه مصير مجهول ؟

— لا تقولى مأساة .. إنها معجزة .. معجزتى أنا .

— ولكننى أرفض .. وأرفض بشدة المشاركة فى هذه الجريمة .

— اشاش أرجوك ساعدينى كى اصحح خطأ ما فعلت .

— ليته بوسعك .

اعطنى الفرصة .. وسأستطيع :

— ما أبشع غرورك .

ينظر اليها ..

لقد أصبحت عيناها مليئة دائماً بالدموع .. بالسحب القاتمة ، مابال اهدابها الطويلة تلتقى وتفترق فى لقاءات فاترة ، فقدت خطورة تحديها وحل محل هذا كله نظرة أخرى ، فيها خضوع واستسلام وهدوء ، وفيها الاحساس بأنها تحيا .. لمجرد انه ، محكوم عليها بالحياة .

— تحولت نظراتها لعتاب ولوم وتأنيب .. وما كان ذلك عادتها .

وبنظرة منكسرة سألها ادهم :

— اشاش .. هل تكرهيننى ؟

بسرعة تجيبه :

— نعم أكرهك ..

وتمنى ادهم الموت على سماع تلك الكلمة .. انها المخلوق الوحيد الذى احبه فى هذا الكون ، ولكن الحب قدر .

فقال :

— لماذا اذن لا تقتلينى وتريحينى من هذا العذاب الذى بت ألقاه ليل نهار ....؟

صمتت .. فقال :

— أتتمنين لى الموت ؟

— ليتك تموت وتريحنى .. وتريح الحيوانات .. وتريح البشر من خطاياك .

وفجأة قطع حديثهما دخول الحيوانات فى غرفتهما ، يتقدمهم سنوسى .. وبعد أن همهم

سنوسى لها بحديث قصير امتقع لونها ، وقالت تتوسله :

— أرجوك .. اخرجهم من هنا بأى وسيلة .

سألها ادهم :

— ماذا حدث ؟

— أرجوك يا ادهم اهرب من هنا بسرعة .

— لماذا ؟

— ارجوك تحرك .. لا يوجد وقتاً للنقاش .

وسمعت زئير الأسد يشتد فأمسكت بالكرباج وجمعت كل قواها لمواجهته .. وتحرك متجها الى ادهم .. وادهم واقف ينظر اليها ، وصرخت فى وجه سنوسى .. لعدم الاذعان لأوامرها .. وحاول الأسد ان ينقض على ادهم .. والحيونات خلفه .

ورغم الخوف الذى ملأ قلب ادهم .. الا أنه كان يستقبل الموت بابتسامة ورضا .. لأن هناك انساناً يحبه ويخاف عليه .. وهذا وحده كفيلا بأن يجعل الإنسان يتقبل أى شيء مهما كانت خطورته .. حتى الموت .. يتقبله برضا وسعادة .

واستماتت اشاش فى الدفاع عنه .. فأخذت تزمجر وترعد ، تئن وتصرخ .. ويبدو أن الأسد مصر على موقفه .. يهددها رافعا أحد ساقيه .. وحالت بينه وبين ادهم حتى تدخل سنوسى ، وهدأت النفوس .. وتحول القوم عنه .. وخرجوا إلى الحديقة ، فالحب والرحمة التى عرفها هؤلاء طغت على مشاعر الانتقام منه . وقبل أن يتحدث ادهم بعد ما كشف الموقف عن قوة حبها له .. قالت :

ـ أرجوك دعنى وأتركنى وحدى .

واصبحت تعانى من جديد .. من المرض والهزال والضعف .. تظل طوال يومها راقدة على الفراش ، بجوارها ، سنوسى .. يمشط لها شعرها ويداعبها .. تقول له :

ـ لم تحب فىّ شيئاً أكثر من شعرى .. أليس كذلك ؟

ـ احببت فيك كل شىء .

ـ ولكننى مشوهة ، دميمة ، تصور إنه

كان من الممكن أن أكون فى مثل جمالها .. لولا تدخل هذا الأحمق .

— ولكنك جميلة أيضا .. والجميع يحبونك .. وحاولى أن تخففى عن أدهم وتصفحى عنه .. انه نسى مجونه العلمى من أجلك .. ويحاول ارضاءك قدر استطاعته .

— نسى مجونه العلمى! الآن فقط .. عرف معنى العلم وقد فات الآوان .. !

أدهم يا أبى ليس له أمان .. اذ ماذا فعل بأمى وقد منحته ثقتها وحياتها .. قتلها .. تصور .. ومن أجل اى هدف يستبيح الإنسان قتل أخيه ؟ كلما أتذكر ذلك لا أستطيع مجرد النظر اليه .

— ولكنه احبك أنت .

— كما يحب حيواناته .. اننى لم ازد لديه على كونى دمية متحركة .. فكيف لا يحبنى وهو الذى صنعنى ؟

— وأنت ألم تحبيه ؟

– احببته حباً لم يعرفه مخلوقاً بعد فى هذا الكون ، ولكن ماذا يفيدنى من جراء تلك العاطفة التى تحولت لشفقة ، نعم انه يشفق علىّ .. ويحب نجاحه .. اما أنا فأحببته بغدره وأنانيته ، بقسوته وغروره .. فمن منا الذى يعرف الحب ؟ ان حبه متوقف على من يمنحه أكثر .. وأنا حبى متوقف على من أستطيع منحه كل شىء .. أعتقد أننى ورثت امى فى ذلك .

وتمنت نسيان ما حدث ، علها تعيش وتعود لأحلامها البريئة ويعود اليها كما كان فى مخيلتها .. الرجل الاوحد .. والاله الجميل الذى يهب ولا يأخذ .. لو تستطيع محو هذه اللحظة من تاريخها .. وبسخرية تقول :

– كان يهدف لادخال العقل والتفكير فيكم ولكن لا أحد يعرف .. أيهما أفضل ؟ فما أجمل الكائنات التى لا تفكر .

– انى لا أفهم شيئاً .

– يا لحظك السعيد .

ثم توضح له بمرارة ما تقول :
ـ هنا فى رأسى يكمن جزء اضافى لا يوجد لديكم ، يوجد لدى انا وحدى .. وهذا الشىء يؤرقنى ويعذبنى .

يقول لها سنوسى بشفقة :
ـ اذن فلتزيل هذا الجزء الذى يؤلمك ويؤرقك .
ـ ليت هذا ممكن ... ما ترددت لحظة واحدة فى بتره .

* * *

الفصل التاسع

أصبحت تبذل كل ما فى وسعها لتجنبه ..

فسألها :

ـ إش‌إش هل يسعدك فراقى ؟

ـ لا يسعدنى قدر ما يريحنى .

ـ ان الله يغفر الذنوب جميعاً .. وأنتِ ألن تقبلى توبتى ؟

ـ أسأل الله .. عسى أن يقبل توبتك .

ـ أنا لم أتخيل بعد أنه من الممكن العيش بدونك .

ـ ولكننى اكرهك .

ـ انك تكذبين .. ولن اصدقك بعد ماحدث بالأمس ، وسأصدق قلبى الذى يرى بداخلك أكبر وأرق قلب فى العالم . انى أشعر بأنه لا

مأوى لى سوى هذه الغرفات الأربع الموجودة بداخلك .. فلماذا تودين طردى من المكان الوحيد الذى يأوينى فى العالم .

— كان عليك أن تفرق بين الحب والشفقة ، لأننى لم أدفعهم عنك حبا .. ولكن أشفقت عليك من أنيابهم .. فليس بوسعى رؤية انسان ما .. يتمزق .. وأى انسان هو ؟ من حملت له يوماً ما قدراً من الحب ؟

— والآن !

— لاشىء يربطنى بك سوى تجربتك التى تضافرت معك على تعذيبى .

— وهانت عليك أيامنا الجميلة ؟

— كلها كانت غش وخداع .. اوهمتنى بأننى أجمل كائن فى الكون .. وصدقتك لأن من يحب لا يساوره الشك للحظة .. والانسان عندما يحب يصدق كل شىء وكل ما يقوله حبيبه حتى لو كان كذباً .

— اش‌اش ......

ـ أرجوك دعني ولا داعي لاستمالتي مرة اخرى .. لأنك دخلت قلبي مرة واحدة .. وخرجت منه مرتين .

* * *

وصل الوفد المكون من المصورين ورجال الصحافة ، والشرطة الى الغابة في الصباح ، وراح المصور يلتقط صوراً مختلفة للبيت .. وكان الصحفي المرافق للوفد ليس بحاجة للورق والقلم ، فأحداث ما يراه كافية لحفرها وانطباعها داخل عقله .

فتح رجال الشرطة البيت بأدواتهم المعتادة .. واقتحموا البهو فإذا بالحيوانات تفزع لرؤيتهم ، وقفز سنوسي بسرعة ليوقظ ادهم من النوم .. وكان ادهم يقظاً .. لم ينم بعد .. يؤرقه ، حديث اشاش .. وعندما سمع صوتاً غريباً .. ازاح الستار عن النافذة .. تسمر في مكانه من هول المفاجأة .. وعندما قابلهم قال له الصحفي :

— بعد كل هذه الأعوام قدر لنا ان نلتقى .. أين أبحاثك يا دكتور ادهم ؟

والمصور يلتقط العديد من الصور لادهم مركزاً على وجهه الذى بدى عليه علامات الرعب والخوف والاستنكار .

واعطى ضابط الشرطة أمراً بتفتيش البيت ومصادرة الحيوانات . وبينما جرى ادهم يحول بينهم وبين غرفة اشاش .. يشير لسنوسى ان يأتى بالحيوانات لأنقاذها منهم .. ولكن سنوسى عجز عن فهمه .. وتوالت صرخات ادهم :

— لا تدخلوا هذه الغرفة .

قال الضابط بحزم :

— ابتعد عن الغرفة والا استخدمنا القوة .

وصرخ ادهم لأول مرة فى حياته مدافعا عن شىء ما .

وقام بعض ضباط الشرطة المدربين على اصطياد الحيوانات بحبس الحيوانات الغير مألوفة الشكل .. وقام رجال معهد الأحياء بتخدير بعض

الحيوانات المفترسة للاتيان بها حية .

ثم اقتحموا غرفة اشاش ..

اخذتهم الدهشة لرؤيتها .. فتوارت خجلا ، وانكمشت فى أحد أركان الفراش تختبأ من نظراتهم ..

هجم عليها رجال الشرطة ، واستسلمت لهم ، وتبادل كل من ادهم واشاش نظرات غريبة .. مليئة بالحب والصفح والرحمة ، وألقوا بها وسط الحشد الهائل من الحيوانات التى تم القبض عليها .. وعندئذ اسرعت لترتمى فى احضان سنوسى .. وكأنها تحتمى به من الأيام .

وظل ادهم طوال الطريق مطرق الرأس واجماً وحاول اقناع الضابط باحضارها وسطهم لكونها انساناً وليس حيواناً ولكنهم رفضوا الاذعان لأقواله واصروا على موقفهم لعدم تجاوبها معهم فى الاجابة على أى سؤال وجه إليها .

لم يفكر ادهم فى المصير الذى ينتظره .. وكل ما يشغله هو أمر اشاش وأين سيزج بها ؟

شعر بفقدها انه فقد الحياة وبأنه كمن قامر في لحظة واحدة بكل ما تملك يداه . فلما خسر .. خسر كل شيء .

وبسرعة أخذ يفكر في طريقة لهروبها ، ولكن كيف ؟ كيف يحميها ويجنبها نوازل هذه الحياة ؟ لماذا قبلت اشجان تلقيحها وجازفت بحياتها ؟

ليتها ما فعلت !

كان حتماً سينفصلا ..

وكانت اشراش لن تخرج للوجود لتتعذب كل هذا العذاب

يخبط بكفه على جبينه وكأنه يود لو استطاع أن يعاقب نفسه .. لو لم يكن بهذا العقل .. ما جنى تلك الثمرة المرة المذاق .. اشراش ... علقم حياته كلها .

ماذا يفعل بعد ؟

* * *

لأول مرة فى حياتها ترى بشراً .. تحملق فيهم متأملة .

ما أبدع هذا الخلق .

تشعر بالحقد على ادهم الذى حرمها العيش ، وسط هذا العالم الجميل .

وتطير بهم الطائرة .. محلقة فى سماء البشر ، تنظر إش‌إش من نافذة الطائرة وهى فى كنف سنوسى ، الذى بدت عليه علامات الاندهاش تشعر برغبتها عن هذا العالم الذى ستصبح تحفته بعد قليل .. تفكر فى الموت .. وكم هو نعمة عظيمة .. ولم لا ؟ انه مصير ، كل الأحياء .. ولكنها تختلف عن كل الأحياء .. فهى ، ليس لها شبيه .

يفتر ثغرها عن ابتسامة نكراء .. وهى فى انتظار ، المجهول .

تفكر .

بلا شك سيتم محاكمة ادهم .. وانها ..

ستصبح اللعبة الجديدة فى المجتمع .. والدجاجة التى تبيض ذهباً لمن يقتنيها .

تستعيد ما سمعته عن قدوم رجال معهد الأحياء ، الذين يريدون اقامة الفحوص والتحاليل عليها .

ستكون فأر المعمل .. والقرد المسعد .. والتحفة النادرة .

تغمض عينيها برهبة من المجهول .. وتتمنى الموت قبل أن تصل لهذا المجهول المخيف .. فهى لم تعرف منهم سوى ادهم القاسى .. ولم ترى سوى هؤلاء الذين يحيطونها من كل جانب .. فماذا سيكون الغير ؟ تشعر بأن هذا العالم بعيداً عن الرحمة .

تحدق فى عينى أبرها قائلة :

— ما أرحمكم أنتم يا معشر الحيوانات .. تعيشون فى سعادة لولا وجود الانسان فى حياتكم ..! ما أسعدكم حظاً .

وتغمض عينيها لاقصى ما تستطيع معبرة عن

رفضها لهذه الحياة .. وتغوص مختبأة فى احضان سنوسى .. فيراها ترتعش فيطبق عليها بحنانه ، وتختفى عن عيون الحياة بين ذراعيه .

* * *

تصل الطائرة لمطار القاهرة .. وتنزل اش‌اش مع سنوسى والحيوانات الأليفة المستأنسة .. ولأول مرة يفترقا .. ادهم واش‌اش . فالسيارة التى حملت الحيوانات غير السيارة التى حملت ادهم ورجال الصحافة والشرطة والعلم .

وشعر ادهم أن روحه تسلب منه .. وانه يهوى .. ولم يستطع تحديد معالم الرجال الذين يحيطونه .. وبدت له صورهم كالاشباح والخيالات المتحركة .

ولمح رجال الشرطة مدى تمسك وتعلق اش‌اش بسنوسى ، فتركوهما على حالهما .. حتى ادخلاهما قفصاً واحداً .

وقام مساعدو الباحثين بإعداد الغذاء المناسب

لكل منهما ولكن اشاش قررت الامتناع عن الطعام والامتناع عن الكلام ، فى محاولة هادئة لأستقبال الموت .

حاول سنوسى اقناعها بأنها ستموت جوعاً اذا لم تأكل .. وتمنت لو لم يكن لها عقلا لأصبحت هادئة الآن ، ألهذا الحد تكره العقل ؟ وكيف لاتكره وكل مشكلة سنوسى كما قال لها انه سيحبس داخل الجدران .. ولكن عنده أملاً فى الهروب بحثاً عن الحرية ... وشعرت بالسخرية من نفسها .. وهى تسمع قضيته الرئيسية فى الحياة .. وهى كيف يعثر على حريته التى لم يعرف معناها الا عندما فقدها ، اما هى فلم تستطع تبسيط مأساتها وقضيتها فى الحياة ، فمأساتها أكبر من الحياة وأقسى من الموت .

تفكر فى ادهم .. وكيف سيحتمل السجن ؟ وانه اذا كان من الصعب على الحيوان تحمل السجن فكيف سيحتمله هو ، وهو ادهم ..

العالِم الكبير! أدهم ذو العقل الخلاب والفكر المتمرد !

تستعيد شريط الذكريات وهو يقول لها :

ــ أنت أجمل كائن فى الكون ..

تئن بلا صوت .. وتبكى بلا دموع .. بعد أن اصرت على الموت .

وطنت نفسها على التحمل .. وهى تسمع أقوالهم :

ــ انه يدعى انها تتحدث مثلنا .. فهى بشر ! فيقول المخاطب وهو أحد الباحثين :

ــ كلا .. فمن المستحيل أن يكون هذا المظهر بشراً فهى نتجت من تهجين امرأة مع الشمبانزى .. أتعرف أنهم يقولون أن هذا المرأة هى زوجته .

ــ زوجته !

ــ نعم .. زوجته .

وأصبح شغل المعهد هى اش.اش ، والتحاليل التى يجرونها عليها والحقن التى يحقنونها

بها .. كل ذلك وهى مستسلمة لم تقاوم او ، تعترض .

ويوماً أخذها أحد الباحثين فى معمله وعندما تركها فى المعمل .. راحت تبحث عن الجرائد والمجلات لتقرأ ما يكتب عن ادهم .. وعرفت موعد الحكم فى قضية ادهم .. وعرفت أيضا أن كثيراً من الأثرياء يحاولون ويعرضون المبالغ الباهظة لاقتنائها .. وكم كانت ابتسامتها الساخرة عندما عرفت انهم سيعدون لها جناحاً مخصصاً فى معهد الأحياء لاتاحة الفرصة لأكبر عدد من الباحثين لفحصها ، مما سيعود على المعهد بمبالغ طائلة .. كما أن المعهد رفض ارسالها لأى جهة علمية اخرى .

وطالبت حديقة الحيوان باقتنائها وأعربت عن استعدادها لدفع أى مبلغ مقابل شرائها .

واندلعت القضية .

أين توضع إشإش ؟

فى الحديقة ام فى المعهد ؟

ان مسألة بيعها لعامة الناس أمر مرفوض نهائياً ، فالدولة تمكنت من مصادرة كل الكائنات .. وتم تسليمها بالفعل للمعهد .. وحديقة الحيوان .

اما اشاش .. فظل أمرها معلقا .. ورفعت حديقة الحيوان قضية طالبت فيها بأحقيتها فى ضم اشاش لممتلكاتها .. واعترض معهد الأحياء بشدة .. وتأجل الحكمَ فى مسألة اشاش حتى ينتهى المعهد من تحاليله الفسيولوجية للاعضاء الداخلية لها .

والطريف أن اشاش كانت تبدو أمامهم كمفكر مضحك المظهر ، وهى تمسك الصحف وتقلبها باحثة عن موضوع بعينيه لتقرأه كان الباحثون يضحكون ظنا منهم بأنها تقلد الانسان ، غير متوقعين او متخيلين على الاطلاق انها من الممكن ان تكون بشرا يعى ويفهم كل شىء .

* * *

وضع الدكتور ادهم على ذمة التحقيق . .
وتم القبض عليه لحين صدور الحكم فى قضية اقتنائه حيوانات فريدة من نوعها ، والتستر على الكائنات غير المألوفة .. واتهامه بإستخدام الإنسان فى اجراء تجاربه العلمية .

وفى استجواب ادهم سأله المحقق — ضابط الشرطة — والمحضر يدون كل ما يسمع :

— إنك متهم باستغلال الفقيدة السيدة اشجان فى تجربة وراثية .. وهناك أوراق بخط يدك تثبت أنك قمت بتلقيحها بالشمبانزى .. هل حدث ذلك ؟

بخضوع واستسلام :

— حدث .

ينظر اليه المحقق باحتقار .. ويسأله :

— كيف سولت لك نفسك الاتيان بذلك ؟

قال ادهم غير محاول الدفاع عن نفسه :

— اننى معترف بكل شىء .. والمهم الآن هو أن اشاش ليست حيوانا .. ويجب أن

تصدقونى .. لأن الابحاث والتحاليل التى تجرونها عليها تهدد حياتها لأنها انسان يعى ويفهم ويحس .

لم يصدق المحقق أقوال ادهم .. ولم يعره أحد اهتماماً وانقطعت اخبار اشاش عنه .. ووضع ادهم فى زنزانة بمفرده ولأول مرة تنفرد به نفسه .. يتلهف على سماع أى شىء عن اشاش ، وعرف من الصحف موعد الحكم فى مصادرة اشاش وامتلاكها .

وقام أهل ادهم بتوكيل كبار المحامين للدفاع عنه ، وحاول كل محام أن يجد له مخرجاً بعد الالمام بكل ما حدث فى التجربة ، منذ زواجه من اشجان وحتى العثور عليه .

ونصب القضاء للحكم فى قضية اشاش .. ووقف المحامى يدافع عن اشاش مستنداً على نتائج التحاليل التى اجراها معهد الاحياء .. ووقفت اشاش فى قفص الإتهام يليها ادهم ، وامتلأت القاعة بالعلماء والمثقفين

وراح المصورون يلتقطون العديد من الصور لأدهم وهو يحاول اخفاء رأسه كالنعامة .. وراحت إش إش تتوارى خجلاً وتتلفت يميناً وشمالاً حياء من مظهرها المشوه .

وارتفع صوت المحامى مدافعاً عن اش اش يقول :

ـ ان هذا الكائن رغم تكوينه الغريب عن البشر وغير المألوف من الحيوانات .. لا ذنب له فى التشهير به والاعلان عنه لأن تحاليل معهد الأحياء أثبتت انه بشر .. أنثى تحس وتعى مثلنا تماماً ..

ودوت الأصوات فى القاعة ما بين مستهجن ومستحسن ، وذهب كل فى صيحته مدافعاً عن مذهبه ورؤيته فى هذا الأمر ، ووسط كل ذلك واذا بصوت يصرخ وسط القاعة ويرتفع صاخبا «اعدموا هذا المجرم» وردد شباب القاعة هذا القول وارتفعت على اثره الهتافات

المتوالية .. وأعلن القاضى رفع الجلسة وتأجيلها لمدة اسبوع .

وكم تمنى الحاضرون النيل من ادهم لكن الحراس حالوا دون تحقيق ذلك .. وشدوا اشاش بعيداً عن القفص حتى لا يصيبهما اذى .

* * *

تركت اشاش فى نفس ادهم حزناً لا يبلى .. وجرحاً لا يلتئم ورفضت النيابة عودة اشاش لمعهد الاحياء لاستكمال الأبحاث عليها ، وأمرت بوجودها مع ادهم لحين سماع أقوالها حتى صدور الحكم .

دخلت اشاش تجمع اشلاء نفسها فيقترب منها ادهم وهو يقول باكياً :

– إشإش أرجوك سامحينى .. إننى لم أتوقع حدوث كل ذلك .. رغماً عنى ما حدث، رغماً عنى .

شعرت بأن العالم يدور بها .. فاتخذت من

أحد أركان الغرفة مهادا لها .: وافترشته بعد أن اسندت جذعها على الحائط .

يتلوى ادهم معذباً .. ترفرف روحه كالطائر المذبوح ، فيهمس وفرائصه ترتعش :

– لماذا لا تجيبين ..؟ اننى احترق .

نظرت اليه نظرة .. لخصت فيها كل ما تريده ..

اياك والاقتراب منى :..

تحمّل جريرة افعالك ..

كم اشفق عليك من عقلك ..

وأطالت النظر إلى رأسه .. فحاول أن يمد إليها يده فتجنبته برعشة وكأنها تخشى أن تلمسها يدا مخضبة بالدماء .

كانت تفعل ذلك وهى تتعذب .. ولكن كيف تحدثه بعد ماجعلها حديث العالم ؟

وكيف تستطيع مجرد النظر اليه ؟

ان قدرها هو الذى أتى بها اليه .. وما عليها إلا أن تتحمله .. رضيت أم لم ترض .

اغلقت أهدابها وكأنها تنوء بحمل قدرها على عاتقيها .

ولم ينم أحدهما .

يدخل الطعام ويخرج كما هو .. وكأنهما قد اتفقا على الموت .

واستطاعت اشاش طوال الاسبوع الا تحدثه .. بعد أن وطنت نفسها على ذلك .. ونجحت فى التعبير عن رفضها لهذا العالم ، ولادهم أيضا .

دخل عليهما المحامى فسأله ادهم :

ـ هل هناك أمل فى الحفاظ على حياة اشاش وعدم مصادرتها للدولة ..؟

أجاب المحامى بتخاذل :

ـ الأمر ليس سهلا كما تتخيل .. فكونها انسان غير مألوف يعطى للدولة حق مصادرتها ومنعها من الزواج لأنها ..

يقاطعه ادهم وهو يشير له بطرف عينيه لئلا يستطرد فى تلك التفاصيل أمامها حتى لا يزيد من عذابها .

وكانت اشاش لا تشعر انها حبيسة زنزانة صغيرة .. بل تضخم شعورها ليتعدى تلك المرحلة المادية .. فشعرت ان روحها حبيسة هذا الجسد .. وتمنت لحظة الخروج من الحياة .. لتسترد حريتها من الجسد والعالم وادهم .

وفاجأ المحامى أدهم بقوله :

ــ الأمل الوحيد أمامنا هو أن تتحدث اشاش أمام المحكمة .

جلس ادهم بجوارها القرفصاء واقترب منها هامساً :

أتسمعين ؟ من أجل الحفاظ عليك وعدم اهانتك لابد وان تتحدثين يا اشاش .

تنهدت تنهيدة كبيرة .. زفرت فيها كل رغبتها فى الحياة .

فنهض ادهم من جلسته وهو يعد المحامى بأنه سيبذل أقصى جهده فى اقناعها بالتحدث .. ووجه نظراته إليها وهو يقول بأمل :

ــ اشاش لم ترفض لى رغبة طوال حياتها .

وندت ابتسامة نكراء ساخرة على ثغرها .. من أثر جملته ، وخرج المحامى بعد أن ترك القاتل والمقتول وحدهما .

وعبثاً حاول ادهم اقناعها بالتحدث قائلا :

ـ أعلم جيداً ما هو مصيرى الآن .. ولكن مصيرك أنت وأمرك أنت هو الذى يعذبنى ويقلقنى .. لابد أن تواجهى الحياة وتدافعى عن نفسك وآدميتك .. أعلم أنه بوسعك تلك المواجهة فأنت قوية وتستطعين .. كنت أتمنى أن أكون بجوارك لأتحمل قسطاً من العذاب الذى ستواجهينه .. لكن الظروف لعبت دوراً غريباً معنا .. ولن يجدى الندم على شىء .. وعلينا مواجهة الواقع بحزم .. وعزم .. بلا تخاذل أو خوف .. فأنا سألقى حتفى هنا .. بين تلك الأركان .. ان لم يكن هناك حكم باعدامى ، فأنا أشعر براحة ورضا لأننى سأنال جزاء ما فعلت ولكن أنت ! أنت لم تفعلى شيئاً ضاراً

فى حياتك .. لم تقترفى إثماً قط فى حياتك ، فلم تعاقبين ؟

المسألة لابد أن نتعامل معها بشىء من المرونة .. فأنت شعلة من الذكاء .. ومن الممكن أن تكونى أعظم كائن فى الكون .

وعلى أثر جملته تلك انبعث من اشاش ضحكات هيستيرية متوالية وهى تراه يتحدث بنفس الثقة وطريقة الاقناع التى يجيدها ليذكرها من جديد بأقواله المريرة :

— أنت أعظم وأجمل كائن فى الكون .

رددت بسعادة مفتعلة وهى تحبس دموعها :

— ألم يغيرك ما حدث ؟

وأضافت :

— امازلت تتحدث بتلك اللهجة الواثقة .. أبشر أنت أم شيطان ؟

— لو كنت شيطاناً ما حاولت الدفاع عنكِ .

ضحكت بصوت عال وهى تقول :

ـ ليس باختيارك .. الأمر لم يعد بيدك يا دكتور، فليس هناك مفر من أن تخفف عنى .. بدلا من انتظار الموت .

ـ اشاش .. من الممكن أن يستقبل الانسان الموت بصدر رحب ورضا عذب .. فى حالة واحدة فقط .. ان يكون بجواره من يحب .

ـ وها عرفت أنت معنى الحب ؟

ـ عرفته معك !

اردفت تقول بثقة :

ـ انك تخاف الموت .. وتدعى استقباله لأنه أمر لا مفر منه فانت مخلوق ضعيف .. تحاول ادعاء القوة .. التى تفرضها على من هم أضعف منك .. لأن القوى الذى يتنمر على الضعفاء ما هو الا جباناً .. ذليلاً أمام الأقوياء .

أرجوك يا إشإش لا داعى لكل هذه الكراهية لأننا سنفترق .

وراح ادهم ينتحب قائلا :

ـ أجل أن فراقنا أصبح أمراً حتميا لا مفر منه ، ولآخر مرة أطلب فيها منك الحفاظ على حياتك .. ولتعلمي أن مسألة خروجك من هنا بأمان أصبح يتعلق بك وحدك .

ووضع رأسه بين كفيه وارتفع نحيبه كطفل صغير فقد دميته الوحيدة .

* * *

خرجا من الزنزانة ليقف كل منهما أمام قفص الاتهام .

دوى صوت في المحكمة يقول :

محكمة !

فانتفض كل من القاعة .. وكانت اشاش تقف هزيلة ضعيفة يملؤها الخوف والطمع .

الجميع يتطلعون اليها .. يحركون رؤسهم بحثاً عنها ، وبكل الرضا راحت توزع عليهم ابتسامتها الخفيفة .. المرة التي تقول لهم :

ــ لا ذنب لكم فيما حدث .

وتساءل المحامى وهو يدافع عن اشاش :

ـ اين نضع مخلوقاً رقيقاً .. أساءت إليه الظروف فأصبح مشوهاً ؟ انضعه بين الحيوانات لنقضى على انسانيته .. ونصيبه بالحقد والكراهية ؟ ام نتركه يمارس حياته كسائر المخلوقات .

ثم أشار بيده على الجالسين .. الذين يتطلعون اليها .

ام نجعله فأر الحياة ونقيم عليه الأبحاث فى معهد الأحياء .. ونتجرد من كل انسانية ورحمة .

واشتد صوت المحامى وهو يترافع عن اشاش ويقف بجوارها والدموع تنساب من عينى اشاش بغزارة :

ـ ان هذا الكائن وقع فى ايد شريرة لم ترحمه .. فلماذا لا نرحمه نحن ؟

وطالب المحامى من المحكمة منع الصحف تناول هذه القضية .. حفاظاً على مشاعر اشاش .. ومنعا من التشهير بفتاة رقيقة مثلها .

كما نادى المحامى باطلاق سراح هذا

الكائن لتمارس حياتها العادية ، وإعداد مكان ملائم لسكنها وتخصيص مبلغ من المال شهرياً للانفاق عليها .. ووضع حراسة مشددة حتى لا يستغلها أحد استغلالا غير شرعى .

قال الدفاع موجهاً اتهامه لادهم :

– الدكتور ادهم .. لقد قلت انها تستطيع التحدث ورغم أن التحاليل التى أجريت عليها أثبتت انها بشر فإنها تمتنع عن الكلام حتى الآن .. فلماذا ؟

أجاب ادهم :

– انها فى حالة نفسية ممزقة .. ومحاولة عدم الكلام ما هى الا مجرد اعلانها الرفض المطلق لهذا العالم .

نادى الحاجب على الدكتور رمزى وسأله الدفاع :

– ما رأيك فى هذا الكائن الغريب ؟

أجاب الباحث :

– اثبتت التحاليل أنه انسان .. ولكن فاقد

للنطق ولذلك أرى أنه من حقنا أخذه لمحاولة علاجه وتجميله ليتلاءم وجوده مع البشر .

صرخ ادهم :

— مستحيل .. انها تتحدث .. دعونى أحدثها .. ووجه كلامه إليها وهى بجواره :

— اشاش أرجوك تحدثى أنها مجرد وسيلة وخطة لاقتنائك فى المعهد .. سيصادرونك اذا لم تتحدثين ، وسيجرون عليك أبحاثاً وتجارب لا حصر لها .. وأصرت اشاش على موقفها الصامت .. فاقترب منها المحامى :

— أرجوك يا ابنتى تحدثى ان كلامك سيحميك منهم فاليوم لا يستطيع أحد الدفاع عنك سواك ، والجهر بحقيقتك ورغبتك فى العيش بهدوء سيكون الفصل فى القضية .

ولم يستطع أحد أن يغير ما عزمته .

وطالب المعهد التحفظ على هذا الكائن وعدم تناسله خوفاً على النسل القادم .. والاحتراس

منه لأنه ربما يكون حاملاً للصفات الوراثية الشرسة والمتوحشة ...

ومن أغرب ما نادى به الشباب هو حماية هذا الكائن من الحياة بقتله .

واندلعت الثورة على أدهم مطالبة باعدامه .

وأعلن البعض رأيهم بمنعه من الزواج حرصاً على الأجيال القادمة .. وحرمانية قتله .. وعدم التشهير به ، وتوفير مكان آمن للعيش فيه .

* * *

وجاء حكم المحكمة بوضع اشاش فى حديقة الحيوان.. مع توفير كافة احتياجاتها.

وصرخ ادهم :

ــ مستحيل .. إنها ليست حيواناً .. إنها بشر .

وخرج الجميع ينتظرون خروجها .. ليتبعوها بسيارتهم الى حديقة الحيوان .. حيث يعد لها أفضل الاماكن وأكبرها مساحة .. لأنها ستعرض بطريقة أرقى من سائر الحيوانات .

وقال المحامى يهدأ ادهم :

ــ مازال لدينا فرصة للاستئناف والطعن فى الحكم ، وسأقوم بمحاولة التأثير عليها .

وبكت اشاش وهم يخرجونها وسط البهو الغريب من البشر .. اثقلها الحزن والألم فلم تقو على حمل نفسها .

وتوالت صرخات ادهم تحذرها من الاستمرار فى العناد ، وحاولت ان تتلفت على صرخاته .. ولكن كيف ؟ كيف تستطيع رؤيته والناس يحيطونها من كل جانب .. وصرخت اشاش من المحكمة لتركب سيارة مخصصة يحيطها أربعة حراس خوفاً من هروبها .

وتساءلت اشاش وهى تنظر الى الطريق من نافذة ، السيارة .. والعيون تحاصرها من كل جانب .

الى متى ستستمر رحلة عذابى ؟

ألم يحن الوقت بعد للقلاع ؟

تشعر بألم يعقب ألما .. وتنتبه على فتح باب ، السيارة ودفعها للخروج .

دخلت حديقة الحيوان .. يكسوها الحزن ..

ويعلو وجهها اليأس .. وعندئذ أمر مدير الحديقة باخلائها ، فوراً من الزائرين .. واعداد المكان المخصص للكائن ، الغريب .

وخصص لعرضها أعلى سعر بالنسبة للحيوانات .

وكم عانى رجال الحديقة فى محاولة تغذيتها ، رفضت الغذاء .. وكثر عدد الزائرين والمتطلعين اليها ، وهى تحتضر ببطء .. حتى تمكن المحامى من الحصول على تصريح خروج لادهم لمدة ساعتين قبل استئناف ، الحكم .. لاقناعها بالتحدث حتى يخرجونها من الحديقة .

وقف ادهم أمامها .. بجوار المتطلعين اليها ..، وسط حشد هائل من الناس .. هلعت نفسه وهو يراها تعتلى قفصاً عالياً وسط حديقة مخصصة لها وحدها فى أعلى مكان فى الحديقة .

كانت تعتلى أعلى ربوة ممكنة .. تبدو

كاحدى عرائس البحر .. فشعرها يغطى كل ظهرها .. وجسدها مغطى برداء جميل .. تجلس فوق الربوة مغمضة العينين .. وشعر ادهم بنفسه تهوى .. وانه يسقط سقطته الأخيرة فى الحياة .

وتساءل الزوار :

– أهى دائماً هكذا نائمة ؟

– لماذا لم تجر وتلعب كسائر الحيوانات ؟

– أهى حقا تتحدث ؟

– اننا سمعنا أنها تتحدث مثلنا ولكنها ترفض الكلام .

كل ذلك وهى بعيدة عنهم .. لا تسمعهم ، وعندما فتح الحارس باب مسكنها .. بعد ما أطلع على تصريح دخول أدهم .. اندفع ادهم كالبرق واقترب منها .. والناس تأخذهم الدهشة لاقترابه منها .. فهم لديهم فكرة أنها متوحشة .. رغم وداعة مظهرها .. وعندما شعرت اشاش

بدخول واقتراب شيئاً ما منها فتحت عينيها ، ورفعت بصرها وابتلعت أنفاسها فرحة بقدوم ادهم .. الذى فقدته طوال هذه الأيام الماضية ، ولم يتردد ادهم لحظة فى ضمها بين ذراعيها ، وكلاهما ينتحب .. ولكن ما بالها هشة ضعيفة لا يكاد يطبق عليها الا وشعر أنها تتهشم بين يديه .

سألها :

ــ اشاش أأنت مرضة ؟

جاءه صوتها خفيضاً .. مريضاً .. وكأنها تخرجه من بين اضلاعها وهى تقول :

ــ كيف خرجت من السجن ؟ هل افرج عنك ؟

ــ كلا .. فلقد جئت بتصريح لمدة ساعتين فقط .. من أجل ان أراك .

وعبثاً تحاول أن تبتسم .. فكابدت وهى تقول :

— من أجل رؤيتى !

يمسك وجهها بين كفيه وهو يتأملها باندهاش :

— من أجل اخراجك من هنا .

ثم أردف يقول :

— عاهدينى بأنك ستتكلمين يا إش إش :. لقد تمكنا من الطعن فى الحكم .. وهناك استئناف .. أرجوك يا اشاش ، ساعدينى فى تحقيق آخر مطلب لى فى الحياة .

امتلأت عيناها بالسحب القاتمة ..

وتحركت شفتيها ولكن لم يصدر منهما قول مسموع . فقال :

— اشاش .. أتوسل اليك .. استرحمك أن تجيبى عن كل أسئلة المحكمة يوم الاستئناف القادم .

صمتت .. فعاد يكرر :

— اشاش .. اجيبينى .. قولى انك موافقة .. أعلم أنك ستوافقين .. من أجلى أنا .. أليس

كذلك يا إش‌إش .. فأنا ادهم . ادهم يا إش‌إش ....

يحركها .. فتفتح عينيها .. لتهمس بتعجب وكأنها تقاوم سكرات الموت :

ـ ادهم !

ـ نعم ادهم يا اش‌اش .. ادهم الذى احبك حبا لم يعرفه بشر من قبل فى الحياة.

تضع رأسها على كتفه .. بسعادة غامرة .. وهى تتذكر كلماته .. بأن الانسان من الممكن أن يستقبل كل شىء برضا اذا كان بجانبه من يحبه بإخلاص ، واستطرد ادهم يتحدث عن حلمه وأمله فى تحدثها فيقول :

ـ وستروين كل شىء .

.. وشعر بأنها تخور بين يديه .. وحال بينهما الحارس قائلا :

ـ حان الآن موعد انصرافك .

ودّعها أدهم وهو ينتحب .. وتوالت كلماته وتوسلاته الأخيرة بصوت عال :

— ستتحدثين يا إش إش .. أجل ستتحدثين .

ولم تقو على الرد عليه والدموع تغطى وجهها ، وأنفاسها تتلاحق مرتفعة صاخبة بالبكاء .

* * *

ورغم صدقه وإحساسه بها .. غير أنها لم تستطع مغفرة خطيئته تلك .. فهى أكبر من كل الخطايا التى يقترفها البشر .. انها خطيئة من نوع آخر .. من خطايا الشيطان العلمية .

فهو لم يقترف إثما فى حقها وحسب .. وإنما فى حق الإنسانية كلها . إثم يقترف كل يوم باسم التطور والتقدم والعلم .

ونظرت إش إش حولها متسائلة :

— من هى ... ؟

— بل أين هى الآن ؟

— ولماذا تعيش وسط هذا العالم الملوث بالخطايا والدماء .

تجمع أشلاءها ..

وتخرج هاربة من هذه الحياة . من أدهم وغيره .

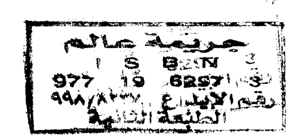
تسير .. تجرى .. وتقفز بعيدا عن البشر..

بحثا عن عالم آخر .

تمت بحمد الله

* * *

فهرس



جريمة عالم
I S B N
977 19 6297 3
رقم الإيداع ٩٩٨/٨٢٣٧
الطبعة الثانية

Омайма Хафаги
ПРЕСТУПЛЕНИЕ УЧЕНОГО
На арабском языке

Издание осуществлено за счет средств автора

